المبحث الثالث
بدء الحرب الصليبية الأولى

بعد خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب إلى رجال الكنيسة أن يعود إلى بلادهم، كيما يبشروا بالحرب واجتهد رجال الكنيسة في ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير الذي قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى والتي انقسمت إلى قسمين، حملة العامة، والثابتة حملة الأمراء، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتماماً كبيراً لا نظير لـه من جانب المؤرخين المعاصرين سواءً اللاتين أو البيزنطيين أو المسلمين وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا في دراسة الحروب الصليبية ولعل مرجع ذلك يكمن في النتائج الخطيرة التي نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس إمارات صليبية في الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان [1].

أولاً: حملة العامة الغوغاء:

على إثر دعوة البابا، قامت حركة شعبية ضخمة ارتبطت باسم " بطرس الناسك " الذي بدأ يتجول غرب أوروبا، بثيابه الرثة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج، يدعو العامة والدهماء، وقد استجابوا لـه في سرعة غريبة، استجاب لـه الفلاحون والمعدمون بسبب الظروف القاسية التي كانوا يعيشون فيها، فلا داعي للخوف لديهم من الموت، وهم في حال أقرب إلى الموت البطيء فعلاً، ومن ثم ظهر زعيم آخر من زعماء العامة هو " والتر المفلس " وسرعان ما قاد أتباعه عبر - هنغاريا - ثم أراضي الدولة البيزنطية وفي الطريق إلى بلاد المشرق الإسلامي، سببت تلك الجموع الصليبية، أنهم يخترقون بلاداً نصرانية فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين. ورغم كل ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون في أول الأمر في البلقان بتلك الجموع الهائمة، رغم مظهرها الرث، وتنظيمها السيء وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال، وشق حملة الصليب طريقهم إلى صوفيا وأدنة حتى بلغوا القسطنطنية في يوليه سنة 1096م وهناك سمح لهم أمبراطور بيزنطة بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك، أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في أبريل عام 1096م على رأس جمع غفير مخترقاً ألمانيا وهنغاريا، وقد أحدثوا مذبحة بين أهالي هنغاريا في بلدة "سملين" أسفرت عن مقتل أربعة آلاف من أهلها الأبرايا وذلك بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم.. واستمر الغوغاء من أتباع بطرس الناسك، في طريقهم إلى البوسفور ينهبون ويسلبون كل ما يصل إلى أيديهم، حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية، حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه في الانتظار وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي وشعبه بخيبة أمل واضحة بوصول آلاف الدهماء هؤلاء إلى بلاده، ليحصلوا على الغذاء والكساء، إن لم يكن بالطرق السلمية، فليكن عن طريق السلب والاعتداء على الرعايا الآمنين؛ ولذلك بدأ الإمبراطور بنقل تلك الجموع إلى الشاطئ الأسيوي

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 241.

للبسفور، وأشار عليهم بالانتظار قرب البسفور حتى تصل الجيوش النظامية من الغرب [1].

ونظراً إلى ما اتصفت به الحملة منُذ البداية من عدم وجود قيادة موحدة، يُفسَّر ما حدث عقب الانتقال مباشرة إلى آسيا الصغرى، إذ أن جموع الألمان، والإيطاليين والفرنسيين راحت تتسابق وتتنافس في شن الغارات على المناطق الزراعية، فسلبوا سكان القرى دون تفرقة بين المسلمين والنصارى واقتربوا من مدينة نيقية عاصمة قلج أرسلان، كما أنهم لم يستجيبوا لنصيحة الإمبراطور البيزنطي بوجوب البقاء في قلعة كيفتوت حيث المعسكر الصليبي وعدم القيام بأي تحرك قبل وصول الحملة النظامية [2]، وقد ابتدأت الاصطدامات الأولى بين الجموع الصليبية والسلاجقة عندما قَرر الصليبيون الزحف باتجاه نيقية، وتجاوز رينالد النورماني هذه المدينة ووصل إلى قلعة أكسيريجون واستولى عليها، واتَّخذ منها قاعدة انطلاق للإغارة على الأراضي الزراعية المجاورة للقرى القريبة [3] وقد أثارت هذه التعديات حفيظة قلج أرسلان، فأرسل القائد إيلخانوس على رأس جيش كبير لاسترداد القلعة، فضرب الحصار عليها، فاستبد اليأس بالمحاصرين [4]، وقرَّر رينالد أن يستسلم ففتح أبواب القلعة للجيش السلجوقي بعد أن حصل على وعد من قائده بالإبقاء على حياته إذا اعتنق الإسلام، وسيق رينالد وأتباعه ممن اعتنق الإسلام إلى أنطاكية وحلب وخراسان، وقُتل من بقي على نصرانيته [5]بلغت أنباء استيلاء النورمان على القلعة مسامع الصليبيين في كيفيتوت، ولجأ السلاجقة إلى خطة ذكية كي يستدرجوهم إلى كمين سبق إعداده، فأشاعوا نبأ استيلاء القوات النورمانية على نيقية، وأنهم بصدد اقتسام الغنائم [6]، فاشتد الاضطراب في المعسكر، وطلب الجنود السماح لهم بالزحف إلى نيقية ليشاركوا النومان حصصهم من الغنيمة، وهكذا راحت جموع الصليبيين تتوغل عبر آسيا الصغرى في الطريق إلى نيقية وهم على غير تعبئة ودون تقدير لمقدرتهم القتالية، إلى أن جرى اكتشاف صدق ما حاق برينالد، فتحولت الإثارة إلى ذعر [7] وما إن اقتربت هذه الجموع البالغ عددها نحو عشرين ألفاً، من رافد نهر داركون، حتى تلقَّفتهم القوات السلجوقية وأبادتهم ولم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف [8] وعندما سمع الأمبراطور البيزنطي بنبأ الكارثة بادر إلى إرسال بعض السفن نقلت الناجين إلى القسطنطينية [9].

وبهذا تأكد الإخفاق الكامل لحملة العامة التي هي بمثابة التجربة الأولى للصليبيين في قتال السلاجقة ولا مراء في أن النتائج التي تمخضت عن حملة العامة كانت على درجة كبيرة من الأهمية

(1) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص 90.
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 80.
(3) المصدر نفسه ص 81.
(4) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 81.
(5) المصدر نفسه ص 81.
(6) المصدر نفسه ص 81.
(7) المصدر نفسه ص 81.
(8) المصدر نفسه ص 81.
(9) المصدر نفسه ص 81.

في تاريخ الحروب الصليبية منها:

أ- تأكد للغرب الأوروبي أن الاندفاع العاطفي والنوعيات الغير مدربة عسكرياً لا تجدي مع الفروسية السلجوقية.

ب- لا بد من بديل عسكري فروسي منظم من أجل تحقيق أية مكاسب عسكرية مستقبلية.

ج- أدى الفتك بالآلاف من الصليبيين إلى اعتقاد عناصر عديدة في الغرب الأوروبي بمسؤولية الإمبراطورية البيزنطية في تلك الكارثة على الرغم من أن الأمبراطور الكسيوس كوميتي أوصى جحافل العامة بضرورة التريث دون جدوى.

د- نلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية ستكون بمثابة الجهة التي سيحملها الغرب الأوروبي كل فشل يحل بأية حملة صليبية تصل إلى المنطقة والعجز عن تحقيق أهدافها لأسباب عديدة وفق الظروف التاريخية المختلفة والتي قد لا يكون لبيزنطة مسؤولية عنها بالضرورة.

هـ- ومن الملاحظ أن فشل حملة العامة كانت رصيداً إضافياً لميراث الكراهية والحقد الذي نشأ بين الغرب الأوروبي وبيزنطة وسيتصاعد الأمر عند حدوث كارثة 1204م/602هـ والتي ستسقط من خلالها العاصمة البيزنطية تحت أقدام الصليبيين.

و- رد على ذلك، أن من نتائج حملة العامة أن ظهر الإصرار من جانب الغرب الأوروبي على قيام حملة جديدة هي حملة الأمراء التي ستتمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في الشرق ستقلب موازين القوى العسكرية وبالتالي السياسية لصالح الصليبيين إلى حد كبير [1].

ثانياً: حملة الأمراء:

كانت هذه الحملة أكثر تنظيماً من حلمة العامة: إذ بدت فيها الروح الإقطاعية واضحة، وتولى زعامتها عدد من الأمراء، لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة، مما جعل تلك الحملة في حقيقتها عبارة عن عدة حملات، ربما عملت أحياناً في اتجاهات متعارضة [2]، ويمكن تقيسم حملة الأمراء إلى أربع مجموعات، اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية، وكذلك الوضع الجنسي، واللغوي للعناصر المشاركة فيها، أما المجموعة الأولى فكان على رأسها جود فرد البويوني وأخيه بلدوين وقد قادا جيش القلاندرز، واللورين، وشمال غرب فرنسا وبالنسبة للمجموعة الثانية: كان على رأسها بوهيمند النورماني وهو ابن روبرت جويسكارد الزعيم النورماني البارز وقد قام بقيادة النورمان الإيطاليين، وكذلك ابن اخته تانكرد، ثم نجد المجموعة الثالثة على رأسها ريموند كونت تولوز ومعه المندوب البابوي أدهيمار، وقد قادا جيوش جنوب فرنسا والبروفنسال، أما المجموعة الرابعة المذكورة عكست الثقل العسكري لصليبية الأمراء، وفي نفس الحين حملت عناصر القوة والضعف في آن واحد، نظراً للتنافس والتناحر الذي توافر لدى القيادات العسكرية وهو الأمر الذي سينعكس بدوره على أحداث تلك الحملة الصليبية.

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 72.

(2) الحروب الصليبية الأولى د. حسن جبشي ص 65.

1 ـ موقف اليهود من الحروب الصليبية ومن الزوايا المهمة التي ينبغي التعرض لها: أمر اليهود في الغرب الأوروبي عشية قيام الحروب الصليبية، حيث نلاحظ أنهم مثلوا قوة اقتصادية ذات شأن كبير واستقروا في المدن الكبرى لاسيما تلك الواقعة على خطوط التجارة العالمية ومن أمثلتها حوض الراين بألمانيا، ونجد أن التجار اليهود قد حرصوا على إقراض من اتجه للاشتراك في الحملة الصليبية الأولى بفوائد باهظة من خلال انتشار ظاهرة الربا حينذاك، ولا نغفل أن اليهود منُذ بداية المشروع الصليبي توجسوا منه خيفة على مصالحهم التجارية مع تجارة الشرق، ويذكر البعض أن اليهود الألمان في مناطق مثل مينز، وكولونيا جمعوا الأموال، وحاولوا تقديمها لجودفرى البويوني من أجل إثنائه عن عزمه عن المشاركة في أحداث تلك الحملة خوفاً من تهديد مصالح اليهود التجارية في الشرق [1]. زد على ذلك أن اليهود في الغرب الأوروبي نظرت إليهم الدوائر الكنسية ـ صاحبة النفوذ الكبير في تشكيل عقلية ذلك العصر ـ نظرة عداء وارتياب دائمين من خلال مواقفهم العدائية من المسيحية في تاريخها الباكر، ثم أن اليهود عاشوا في المدن التي أقاموا فيها في أحياء خاصة بهم أو ما عرف بالجيتو اليهودي، ومثلوا كيانات منعزلة ومتقوقعة وترفض الاندماج في المجتمعات الأوروبية المحلية الأكبر على نحو أدى إلى توافر نظرة عدائية عميقة تجاههم تزايدت مع تعاقب السنين، مع ملاحظة أن اليهود أنفسهم لم يعملوا من جانبهم على تغيير تلك النظرة العدائية لدى خصومهم والواقع أننا لا نورد كافة تلك الاعتبارات كتبرير للمذابح التي اقترفها الصليبيون ضد اليهود في حوض الراين كما حدث في مدن سيابر وكولونيا ويراين وغيرها [2].

وكان الصليبيون يخيرون اليهود بين الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية أو الموت، وقد ظهر عدد من القادة الذين قادوا هذه المذابح ضد اليهود من أمثال فولكمار، وجوتشوك واميخو، وقد سقط المئات قتلى، على نحو عكس روح التعصب العارمة التي سادت صفوف الصليبيين وعدم قدرة المسيحية على أيدي أبنائها المتعصبين على التجاور مع أهل الأديان الأخرى سواءً على أرض القارة الأوروبية ذاتها أو في بلاد الشام ومصر عندما تصل إليها أقدام الصليبيين، ولا نغفل؛ أن مثل تلك الحوادث دعمت لدى العقل الجمعي اليهودي فكرة الاضطهاد، بل ومعاداة السامية إدراك سلوكياتهم عن ذلك، واستغلوا ـ فيما بعد ـ مثل تلك الأحداث من أجل استمرار المكاسب السياسية تكفيراً عن الذنوب التي اقترفت في الماضي [3].

2 ـ موقف الإمبراطور البيزنطي من حملة الأمراء: تقدمت الجماعات الأربع المذكورة نحو الشرق، وكانت أولى الجماعات التي وصلت إلى الأراضي البيزنطية تلك التي كانت بقيادة جودفري البويوني وشقيقه بلدوين، ويلاحظ أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أرسل رسله إلى جودفري البويوني للالتفاق على ألا تتعرض بلاده غلى للسلب والنهب مثلما كان الأمر مع حملة العامة وفي المقابل قدم للصليبيين المؤن والإمدادات إلى أن يصلوا إلى مناطق السلاجقة، غير أن

(1) العلاقات بين الشرق والغرب أحمد رمضان ص 107.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 74.
(3) المصدر نفسه ص 74.

قوات جودفرى لم تلتزم بذلك واستباحت أحد المواقع البيزنطية في صورة مدينة سليمبريا وقد طلب الأمبراطور البيزنطي من جودفرى أن يقسم له يمين الولاء والطاعة واستخدام سلاح قطع المؤن والإمدادات عن قواته إلى أن أرغمه على أن يقسم له يمين الولاء والطاعة واستخدام سلاح قطع المؤن والإمدادات عن قواته إلى أن أرغمه على أن يقسم له ذلك القسم وذلك في أبريل من عام 1097م/491هـ وتعهد بأن يرد للإمبراطورية البيزنطية ما فقد منها من مناطق، وتم نقل قوات جودفرى بويون بالسفن البيزنطية إلى آسيا الصغرى وأما فيما يتعلق بالمجموعة التي بقيادة بوهيمند ابن روبرت جويسكارد، فقد كانت الأمبراطورية البيزنطية على جانب كبير من الخوف منها، خاصة أن النورمان مثلوا لها أقوى أعدائها وأخطرهم، ولا نغفل أن أطماع النورمان في أملاك الإمبراطورية في جنوب إيطاليا وسقوط بارى آخر أملاك بيزنطة هناك عام 1071م/464هـ.

كل ذلك لم يغب عن أذهان المسؤولين البيزنطيين البتة وهم يتعاملون مع المجموعة المذكورة، وبصفة عامة وافق بوهيمند على أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور الكسيوس مع ملاحظة أن البعض الآخر مثل تنكرد ابن أخت بوهيمند لم يقسموا ذلك القسم وبالنسبة التي على رأسها ريموند الرابع كونت تولوز: فنعرف أن تلك القيادة الصليبية لم تقسم يمين الولاء للإمبراطور، غير أنها وافقت على القسم باحترام حياته وعدم الإساءة إليه وفيما يتعلق بالمجموعة التي على قيادتها روبرت النورمندي، فقد وافق الأخير على القسم للإمبراطور، وعبرت تلك المجموعة مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى شأنها في ذلك شأن المجموعات الأخرى وعلى أية حال: فإن المكسب الأكبر - الظاهري - الذي حققه الكسيوس من تعامله مع تلك المجموعات الصليبية: أنه عقد معهم اتفاقية القسطنطينية عام 1097م/491هـ [1] والتي تعهد فيها الطرف الصليبي بأن يعيد لبيزنطة كافة المواقع التي كانت لها من قبل اجتياح السلاجقة لأراضيها، ومن المنطقي تصور أن أنطاكية حاضرة كانت لها من قبل اجتياح السلاجقة لأراضيها، ومن المنطقي تصور أن أنطاكية حاضرة نهر العاصي الكبرى دخلت ضمن ذلك الاتفاق في مقابل تقديم بيزنطة للمؤن والإمدادات للصليبيين ويلاحظ أن الصليبيين لم يلتزموا بتلك الاتفاقية التي تصورت الإمبراطورية البيزنطية أن من الممكن إلزامهم بها دون جدوى [2].

3 - سقوط نيقية: اندفعت الجيوش الصليبية بعد العبور، باتجاه نيقية للاستيلاء عليها نظراً لموقعها الجغرافي، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشّكل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وتوحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية [3] وعندما وصلت القوات الصليبية عاصمة دولة سلاجقة الروم، كان قلج أرسلان السلجوقي متغيباً عنها، وفرض الصليبيون الحصار عليها، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالسلاجقة، وهو الانتصار الأول لهم، وقد اتجهت الحامية السلجوقية للمدينة، إلى الاستسلام، واتصلت بصورة سرية بالبيزنطيين وتم الاتفاق على الاستسلام في مقابل ألا يتعرض أحد بالسلب والنهب، وبالفعل فوجئ الجميع بارتفاع الأعلام البيزنطية ترتفع

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 76.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 76.
(3) المصدر نفسه ص 76.

فوق أسوار نيقية وذلك في يونيو 491/1097هـ [1]، وبذلك سقطت نيقية في أيدي البيزنطيين بعد ستة عشر عاماً من فتح السلاجقة لها، وأضحى بوسع الأمبراطورية التنفس بحرية بعد إجلاء السلاجقة عن هذا المعقل الأمامي الحصين [2].

توجه قلج أرسلان بعد سقوط عاصمته، نحو قونية، وأتخذها عاصمة جديدة لسلطنته، وقاعدة عسكرية للانطلاق منها والدفاع عن أراضيه، ثم أجرى مفاوضات مع الأمير الدانشمندي من أجل تجميد خلافاتهما، والتعاون، لمواجهة الغزو الصليبي الذي يهدِّدهما سوياً. لقد زاد سقوط نيقية من خوفه على المستقبل، كما أن ضياع أمواله وكنوزه كان أمراً سيئاً [3]، وأسفرت المفاوضات بين البيتين التركيين، السلجوقي والداشمندي، عن عقد هدنة بينهما، كما اتحدا للتصدي للزحف الصليبي الذي وصل إلى كبادوكية، وتناسياً مؤقتاً، تنافسهما بشأن ملطية، وهكذا اتحد جميع الأتراك في آسيا الصغرى للتصدي للصليبيين في سهول دور يليوم [4]، ومما يحسب للإمبراطور البيزنطي تنفيذه للاتفاق المُبرم بين الإمبراطور وأهل نيقيه، فقد خرج الأتراك من المدينة مع عائلاتهم وأمتعتهم تحت حراسة مشَّددة إلى القسطنطينية أو إلى المعسكر البيزنطي في بيلكانوم ومن يبهم أخت السلطان وزوجته وأولاده، ولم يلبث الأمبراطور أن أعادهم إلى الزعيم السلجوقي دون فدية [5].

4 - معركة دور يليوم: استأنف الصليبيون سيرهم بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، عبر فريجيا متخذين الطريق الروماني الذي يمر في دور يليوم وفيلوميليوم وقونية وصولاً إلى طرسوس وصحبتهم سرية من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس المشهور بخبرته وتجربته [6]، ثم توقفوا في قرية لويكي حيث عقدوا مجلساً عسكرياً حدَّدوا خلاله خطة الزحف، وتقرَّر تقسيم الجيش إلى قسمين لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف، والقضاء على المقاومة السلجوقية في أكبر مساحة ممكنة [7]، وتقدم الجيش الصليبي بقسميه إلى منطقة السهول التي يسقيها أحد روافد نهر سنغاريوس حيث الأتراك يتربَّصون بهم، ويُعد هذا المكان مناسباً لممارسة فرسانهم تكتيكهم العسكري، فانطلقوا عبر السهل بخيولهم الخفيفة وراحوا يلتفون حول القسم الأول المتقدم دون أن يصطدموا به، وحرص الصليبيون من جانبهم على ألا يفرَّقهم الأتراك أو يفاجئونهم بخوض معركة لم يستعدوا لها؛ لذلك عسكروا في 27 رجب / 30 حزيران قرب خرائب مدينة دور يليوم [8]، وظهر الأتراك في صبيحة اليوم التالي وباشروا فوراً بتطويق الصليبيين والضغط عليهم. وجرى اشتباك بين الطرفين أسفر عن انتصار الصليبيين، ورجحت كفة الأتراك في بداية المعركة التي استمرت عدة ساعات قبل أن يصل

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 76.
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 86.
(3) المصدر نفسه ص 86.
(4) المصدر نفسه ص 86.
(5) تاريخ سلاجقة الروم ص 85.
(6) المصدر نفسه ص 86.
(7) المصدر نفسه ص 87.
(8) المصدر نفسه ص 87.

القسم الثاني ويشترك في القتال وانسحب قلج أرسلان إلى داخل هضبة الأناضول، وبلغت الخسائر في الأرواح أقل مما توقع أي من الطرفين، وعانى الأتراك في آخر عشر دقائق من المعركة عندما حاصر الصليبيون جناحهم الأيسر، وأصيب بوهيموند بجراح، واستولى الصليبيون على المدينة [1].

5 - نتائج معركة دوريليوم: كان لمعركة دوريليوم، تأثير بالغ السوء على أوضاع السلاجقة. إذ بهزيمتهم خسروا بعض ما كسبوه خلال أكثر من عشرين عاماً، إلا أنهم كسبوا احترام الصليبيين وإعجابهم بما تحلوا به من شجاعة وبما اتبعوه من أساليب علمية في فنون الحرب وأدرك قلج أرسلان أن لا جدوى من المحاولة لوقف الزحف الصليبي فلجأ مع أتباعه إلى التلال بعد أن خربوا القرى لحرمان الصليبيين من الاستفادة من خيراتها، ولم يعد قلج أرسلان يجرؤ بعد ذلك على مواجهة الصليبيين منفرداً وجهاً لوجه.

* ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم العسكري على القوة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية، ألا وهي قوة السلاجقة في بلاد الروم.

* شكَّل سقوط نيقية وخسارة ودوريليوم طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها في الأناضول، وكانتا نقطة تحول في الشؤون السلجوقية بسبب أن الخسارة التي تكبدوها، في الأرواح أوفى الممتلكات، كانت فادحة بحيث.

* فتحت هذه المعكرة الطريق للصليبيين إلى بلاد الشام، وكفلت لهم سلامة المرور عبر آسيا الصغرى.

* نجحت بيزنطة في استرداد الجزء الغربي من الأناضول التي خسرته بعد سقوط نيقية بأيدي السلاجقة في عام (474هـ/1081م).

* أدّت عملية الاسترداد إلى تغيير مهم في خريطة الأراضي، إذ بينما كانت الحدود السلجوقية البيزنطية تمر في عام 478هـ/ 1085م في مدينتي نيقية ونيقوميدية على مسافة قصيرة من بحر مرمرة ومضيق البوسفور، نرى أن هذه الحدود قد تغيَّرت بعد أن تَّم طرد الأتراك من بيثينيا وأيونيا وفيريجيا، ومن ثَّم عادت هذه المقاطعات بيزنطية، وبذلك تكون الإمبراطورية قد ثأرت لنفسها مما حلَّ بها على أيدي السلاجقة منُذ معركة ملاذكرد.

* حرمت الخسارة السلاجقة من امتلاك هرقلة وقيصرية بالإضافة إلى أن مملكة بلدوين التي أسَّسها في الرها، ومملكة غودفري في فلسطين، وضعتا حدًّا لتوسعهم شرقاً، كما أن وجود قوة نورمانية على شاطئ البحر المتوسط، حرمهم من الاستفادة من الشواطئ الجنوبية الغربية وإذا كان عليهم أن يستمروا فإنهم لابد أن يعيدوا سيطرتهم على الأناضول ويصبحوا أسياده مجدداً [2].

* بالإضافة إلى تراجع قوة السلاجقة، فقد سادت علاقتهم بسلاجقة الشرق؛ لأن قلج أرسلان لم

(1) المصدر نفسه ص 87.

(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 89.

يعترف لهم بالسيادة إلاَّ أنه كان أمامه بصيص أمل، فعرف كيف يستغل استمرار تدفق المهاجرين من الأتراك إلى آسيا الصغرى، بأعداد متزايدة، فجنَّدهم في صفوف جيشه، وخلق منهم جيلاً محارباً قوياً مدرَّباً ومنظَّما [1].

ولا مراء: في أن معركة ضورليوم احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ الحملة الصليبية الأولى فهي أول صدام عسكري كبير بين الصليبيين والسلاجقة وتحقق الانتصار للأولين على نحو كان فاتحة توسعات صليبية غير مسبوقة، وقد أفاد الصليبيين في ذلك كثرتهم العددية وحسن تنظيمهم ناهيك عن استبسالهم في القتال [2].

6 - سقوط قونية وهرقلة: على أية حال: اتجه الصليبيون بعد ضورليوم إلى قونية في أغسطس عام 1097م /491هـ وساروا من بعدها إلى هرقلة وتمكنوا من السيطرة عليها هي الأخرى بعد إلحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة، وعندما بلغت القوات الصليبية أرمنية الصغرى رحب بهم الأرمن وقدموا لهم كل مساعدة، ومن بعد ذلك صار هدف الغزاة يتجه نحو مدينة أنطاكية [3].

7 - إمارة الرها: استمر الزحف الصليبي نحو بلاد الشام، إذ كانت جيوشهم، كالجراد المنتشر، وقد بلغوا قرابة مليون مقاتل، فاحتلوا الرها وأنطاكية، وتوجهوا نحو بيت المقدس، ولم يجدوا مقاومة تذكر نظراً للتمزق السياسي والخراب الاقتصادي في تلك المرحلة، كان معظم سكان الجزيرة الفراتية من نصارى الأرمن الخاضعين لحكم السلاجقة، وخاصة في تل باشر، ومرعش والراوندان [4]فقد رحب الأرمن بالغزاة، واعتبروهم منقذين لهم، وحماة للنصرانية في تلك الجهات [5]، وسار الأعوان والمرشدين من رجال الأرمن، حتى يسلهوا مهمة الزحف أمام قادة الغزو الصليبي " بلدوين وتنكرد" وقد تمكن الغزاة من احتلال: طرسوس والمصيحة، وتل باشر والوانداندان وهي قلاع حصينة في شمالي الجزيرة، وذلك بفضل مساعدة أهلها من الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية، ثم أرسل حاكم مدينة الرها ثوروس الأرمني إلى القائد الصليبي - بلدوين - يدعوه للحضور إلى الرها لمساعدته في تسليم المدينة إليه عام 1098م؛ لأنه خشى أن يحتلها أمير الموصل من قبل السلاجقة، فأسرع بلدوين على رأس قوة صغيرة استقبلت من قبل أهالي المدينة وحاكمها استقبالاً حافلاً، ومن ثم ثار أهالى الرها ضد حاكمهم، مما أدى إلى قتله، وانتقال مقاليد الأمور إلى بلدوين البولوني، الذي اتهم بأنه كان وراء هذه الثورة ولم يقم بواجبه في حمايته[6]، وقد تمكن بلدوين من السيطرة على الرها في أعالي الفرات، وأسس هناك إمارة صليبية من أجل أن تكون بمثابة دولة جاهزة، بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وكذلك بلاد فارس، وكي تكون بمثابة محطة

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 89.
(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 77.
(3) المصدر نفسه ص 78.
(4) الجهاد والتجديد محمد الناصر ص 94.
(5) النجوم الزاهرة (146/5).
(6) الحركة الصليبية (143/2 - 147).

إنذار مبكر للصليبيين في مواجهة أية أخطار عسكرية قادمة لهم من الشرق، وفي هذا دليل واضح أن الغزاة الجدد كانوا يدركون أهمية زرع كياناتهم في مواقع جغرافية ذات أهمية إستراتيجية خاصة، ويلاحظ هنا أن إماراة الرها - على نحو خاص - ستتعرض للعديد من الضربات من جانب المسلمين [1]، وقد توسع بلدوين، فاستولى على تل باشر والراوندان وسميساط وسروج [2]، بالإضافة إلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة الفراتية، فامتدت رقعة هذه الإمارة الصليبية فوق مساحة من الأرض تقع شرق نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهَّددت مدن دياربكر، مثل نصيبين وماردين [3]، وحران، بل شمالي العراق كله، كما سيطرت على الطريق المؤدية إلى حلب والموصل وقد كانت هذه الإمارة من أوسع الإمارات الصليبية وأشدها أذى للمسلمين بسبب أطماع حكّامها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرُّضها بالضرورة لردود أفعالهم بالإضافة إلى عدم تلقيها دعم الحجاج المسيحيين، ولا إمدادات التجار الإيطاليين[4].

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 86.
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 92.
(3) المصدر نفسه ص 92.
(4) المصدر نفسه ص 92.

الغـــزو الصلـيبي

منذ أول يوم كانت صفة الحروب الصليبية أنها حرب لا علاقة لها بالدين بل بالتجارة ، وكانت الخرافة بالذات هي أفضل سلاح في يد تجار هذا النوع من الحرب . فبعد "أعجوبة" العثور على الحربة المقدسة ظهرت بين الصليبيين "أعجوبة" أخرى تمثلت هذه المرة في ظهور أرواح القديسين التي طلبت منهم أن يطوفوا حفاة حول أسوار انطاكية عقاباً لهم على تخاذلهم في احتلالها.

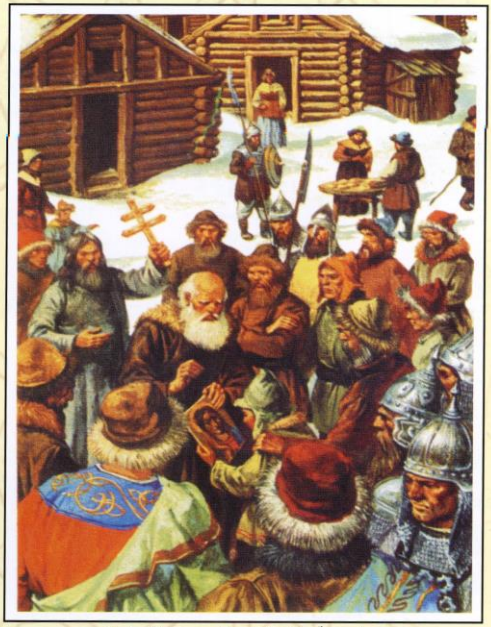

صورة من تجييش الناس للحروب الصليبية

قلعة المرقب – بانياس

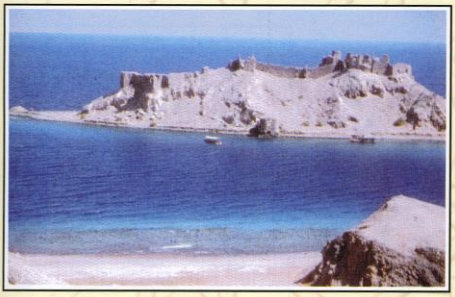

قلعة الصليبيين على خليج سيناء

8 - إمارة أنطاكية: بعد أن انتصر الصليبيون على السلاجقة في آسيا الصغرى، واستولوا على عاصمتهم نيقية واصلوا تقدمهم ونجحوا في تأسيس أول إمارة لهم بالشرق في الرها، دون أن تقابلهم أية صعوبات تذكر، ثم واصلوا تقدمهم بعد ذلك إلى أنطاكية [1]، كانت أنطاكية من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً، وكان لها أهميتها الكبرى لدى النصارى، ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الإمبراطورية الرومانية، وقد أسس القديس بطرس فيها أول أسقفية للنصارى وقد أحدث وصول الجيش الصليبي إلى مشارف أنطاكية هلعاً كبيراً في نفوس الأهالي بسبب كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم[2]، وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله: وصلوا في عالم لا يحصى عدده كثرة، وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها، وانزعجوا لاشتهارها [3].

- موقف المندوب البابوي: عندما اقترب الجيش الصليبي من أنطاكية اندفع المندوب أدهيمر بحماس شديد محاولاً حث الصليبيين على ضرورة التمسك بوحدتهم والوقوف صفاً واحداً كي يتحقق لهم النصر والاستيلاء على أنطاكية، فألقى فيهم الكلمات التالية: إخوتي وأبنائي الأعزاء، نحن نقترب من أنطاكية وهي مدينة محصنة بأسوار عالية يعجز الحديد والحجر عن تدميرها.. فلنحترس ولنحرص على الوحدة، ولنوجه جهودنا نحو الهدف المشترك [4]، وكان لهذه الكلمات أثر كبير في حماس الجند عندما فرضوا حصارهم حول المدينة في أواخر ذي القعدة عام 490هـ أواخر أكتوبر 1097م ولكن ما أن طال الحصار بسبب مناعة المدينة انتاب الصليبيين اليأس وتدهورت حالتهم المعنوية، وفكر الكثير منهم في العودة إلى بلادهم أو على الأقل الابتعاد عن هذه المنطقة واللجوء إلى مكان آخر يكون أكثر أمنا ويجدون فيه ما يقتاتون به [5].

- الحربة المقدسة: انتاب أكثر الصليبيين حالة من اليأس وعندئذ حاول بعض رجال الدين المسيحي انتزاع اليأس والخوف من قلوب الصليبيين المحاصرين لأنطاكية ورفع روحهم المعنوية لمواصلة القتال والمصابرة فيه وذلك عندما صدقوا الرؤيا التي اختلقها أحد صغار الصليبيين ويدَّعى بطرس بارثليميو الذي أخبرهم بأنه رأى في رؤياه أحد القديسيين يخبره بأن الحربة التي طعن بها المسيح في جنبه مدفونة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأنهم إذا أخرجوا هذه الحربة وحملوها أمام جيش الصليبيين فسيحصل لهم النصر [6]، فكان لتصديق هذه الرؤيا وظهور الحربة المقدسة تأثيره البالغ في ازدياد حماس الصليبيين واندفاعهم لقتال المسلمين يتقدمهم حامل الحربة المقدسة، فأحدقوا بالمسلمين، وقام الأسقف أهيمر يخطب في الصليبيين ويحثهم على القتال بكل شجاعة محاولاً نزع الخوف من قلوبهم، قائلاً لهم: أنتم الآن متطهرون وتائبون لله، فمن أي شيء تخافون؟ إن من يموت منكم سيكون أسعد ممن عاش، لأنه سيغادر هذه الحياة الفانية إلى ملكوت الخلود، أما

(1) دور الفقهاء العلماء المسلمين في الشرق الأدني ص 241.
(2) الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر ص 97.
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 134.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 242.
(5) المصدر نفسه ص 242.
(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 242.

من سيعيش فسوف ينتصر على أعدائه، وسيغتني من غنائمهم، فلتتشجعوا فإن القادر المقتدر سيرسل لكم كتائب من السماء لتنتقم من أعدائكم وسوف ترون هذه الكتائب بأعينكم، فلا تخشوا الأصوات الرهيبة التي سوف تحدثها حولكم، إنها جاءت لنجدتنا بعدما أحدق بنا الخطر، انظروا إلى أعدائكم وهم يتطلعون إليكم في رعب يسوع المسيح، وليكن القادر على كل شيء معنا[1].

ويضيف صاحب كتاب أعمال الفرنجة أن الأساقفة والقس والكهنة والرهبان قد ارتدوا حللهم المقدسة وخرجوا حاملين الصلبان ممجدين الرب، ومبتهلين إليه أن ينقذهم من كل شر، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب في أيديهم، ورسموا عليهم علامة الصليب وباركوهم ولما تجهزوا وتدرعوا بالصليب خرجوا للقتال [2]. ونتيجة لهذا الدور الحماسي الذي قام به رجال الدين المسيحي في تشجيع الصليبيين بأنطاكية ازداد الصليبيون ثقة في أنفسهم [3].

- جهود ياغي سيان والي أنطاكية للدفاع عن المدينة: كان والي أنطاكية " ياغي سيان " من التركمان، ويتمتع بدرجة عالية من الكفاية، إلا أن الخلافات والحروب التي كانت بين الأخوين دقاق ورضوان ابني تتش بالشام - وانحياز ياغي سيان إلى هذا مرة وذاك مرة أخرى حرمه من مساعدة أمير حلب، عندما داهمه الغزاة وقد حاول ياغي سيان آنذاك الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين: دقاق ملك دمشق، وجناح الدولة أمير حمص، وكربوقا أتابك الموصل، إلا أن التمزق السياسي، والمطامع الشخصية حالت دون تقديم المساعدات المرجوة، كما أنه طلب النجدة من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في فارس ولكن دون جدوى إلا أن ياغي سيان، كان قد أعد عدته لحصار فشحن القلاع بالجند والمقاتلين، واختزن المؤن الكافية، وقد استمر الحصار مدة تسعة أشهر، حتى كاد شبح المجاعة يهدد الفرنجة، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرص والغرب، حتى صار بعض الجند يفرون من المعركة [4] وتجمعت قرب " شيزر" نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية كان على رأسها: دقاق ملك دمشق، وأمير حمص جناح بن ملاعب ودارت معركة بينهم وبين الفرنجة، وتفوق فيها المسلمون، وقتلوا من الصليبيين جماعة كبيرة عند ضفاف نهر العاصي [5]. وكان ممن ساهم بالدفاع عن المدينة جماعة من المسلمين يعرفون باسم المطوعة، ظلت تدافع عن أنطاكية رغم قلة عددهم حتى بعد اشتداد هجمات الصليبيين عليها - بعد عثورهم على الحربة المقدسة - وبعد أن تفرق شمل العسكر التركماني عن حاكم المدينة مما أدى في النهاية إلى استشهادهم جميعاً [6].

- الروح البرجماتية لدى قادة الحركة الصليبية: وينبغي ألا نغفل زاوية مهمة، وهي أن

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 243.
(2) المصدر نفسه ص 243.
(3) المصدر نفسه ص 243.
(4) الحركة الصليبية (150/1 - 153) الجهاد والتجديد ص 98.
(5) الجهاد والتجديد ص 98.
(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 244.

بوهيمند الذي تاقت نفسه للسيطرة على المدينة - هدد - في إحدى المراحل الحرجة من الحصار - هدد بالانسحاب، ما لم يوافق الصليبيون على أن يجعلوا المدينة لـه من بعد سقوطها وعندما رضوا بذلك قرر بوهيمند البقاء ومواصلة العمليات الحربية ولا شك أن ذلك يثبت لنا أنه أمام أسوار أنطاكية وخلال تلك المرحلة المبكرة من بدايات الغزو الصليبي لبلاد الشام ظهرت الروح البرجماتية لدى قادة الحركة الصليبية على نحو عكس أن من زعم أنه كان من جند المسيح كانوا شرهين للسلطة والنفوذ والمال [1].

- سقوط المدينة بيد الصليبيين (491هـ): رغم حصانة المدينة وكفاءة واليها ودفاع الجند عنها، إلا الإمدادات كانت تتوالى على الصليبيين عن طريق ميناء " السويدية " لمحاصرة أنطاكية، وقد طال الحصار وظهر من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشاهد عند غيره، فقد هلك أكثر الفرنج موتاً وجوعاً ولو بقوا، ولما طال مقام الفرنج على أنطاكية، ظهرت الخيانة، إذ راسلوا أحد المشرفين على الأبراج وهو رجل نصراني أرمني تمسلم، وبذلوا لـه مالاً وإقطاعاً وعند الفجر بعد أن تعب الناس من طول السهر والحراسة، فتح لهم شباك البرج الذي يحرسه، واستيقظ سيان على دخول الفرنجة المدينة فداخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه وخرج نائبه من باب آخر [2]، ثم دخل الصليبيون المدينة وأباحوها أياماً للسلب والنهب والقتل والاغتصاب، وكشرت الصليبية عن أنيابها، وتحول جند المسيح إلى قتلة وسفاكي دماء ومغتصبين [3]، فقد تصرف الصليبيون إزاء سكان إنطاكية المغلوبين على أمرهم بهمجية معهودة لهم، لا حدود لها وبذلك عكسوا وبوضوح الروح العدائية وسالت الدماء انهاراً وقتل من الناس ما لا يدركه حصر [4]، وقال أحد كبار القساوسة: ما من جريمة فظيعة وما من نهب مريع وما من فعلة مخجلة إلا ارتكبوها [5]، يقول لوبون: يدل سلوك الصليبيون في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة [6]، وقد هرع السريان والأرمن من أهل أنطاكية يساعدون الغزاة في التعرف على خفاياها وقتل من فيها من المسلمين [7]. نهاية ياغي سيان والي أنطاكية: أما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار، رجع إليه عقله، فرأى نفسه وقد عدة فراسخ فقال لمن معه، أين أنا فقيل لـه على بعد أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالماً، ولم يقاتل حتى يزيل العدو عن البلد، أو يقتل. وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين ولشدة ما لحقه، سقط عن فرسه مغشياً عليه، وعندما أراد أصحابه أن يُركبوه على الفرس، لم يكن به مُسكة وقد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه، واجتاز به حطاب أرمني، وهو بآخر رمق فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 80.
(2) الجهاد والتجديد ص 98.
(3) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 80.
(4) إمارة انطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية ص 124.
(5) المصدر نفسه ص 124.
(6) حضارة العرب نقلاً عن إمارة انطاكية ص 124.
(7) الجهاد والتجديد ص 98.

بأنطاكية [1].

ـ من نتـائج سقوط أنطاكيـة: تأكدت قدرة الصليبيين على تغيير الخريطة السياسية لشمال الشام ـ على الأقل لصالحهم فهاهي أنطاكية تسقط على نحو يجعل حلب مهددة إلى الشرق منها، ويجعل الصليبيون يخضعون موقعاً إستراتيجياً مهما خاصة قرب أنطاكية من ميناء السويدية (حوالي 20ك م) على نحو يجعل إمكانية الاتصال بأوروبا أمراً ميسوراً ومدعماً للصليبيين إلى حد كبير، وبصفة عامة أدى استيلاؤهم على تلك المدينة إلى فتح الطريق إلى بيت المقدس.

أثبت سقوط أنطاكية بجلاء أن الصليبيين ما نجحوا إلا من خلال فرقة المسلمين، فقد تعاملوا مع كل كيان صغير على حدة وغابت عن المسلمين فكرة المشروع الوحدوي والمصير الواحد، ولم يتناسوا خلافاتهم فكان مصيرهم المحتوم تحت سنابك خيل الصليبيين وسيوفهم البتارة بالإضافة إلى استبسالهم في قتال المسلمين وهي حقيقة لابد من الاعتراف بها[2].

تحدد مصير إنطاكية بإحكام السيادة الصليبية عليها خاصة بعد إخفاق كربوغا أتابك الموصل في أمر الدفاع عنها، ومن قبل عندما قتل ياغي سيان حاكمها [3].

شجع سقوط أنطاكية الصليبيين على استئناف نشاطهم العسكري ضد المناطق المحيطة بحلب على شكل غارات صغيرة [4].

9 ـ مذبحة معرة النعمان: اشتدت المنازعات الداخلية بين الصليبيين حول إمارة أنطاكية، على أن كثرة القتلى والجيف في ساحة المدينة نتج عنه انتشار وباء في معسكر الفرنجة، ذهب ضحيته بضعة آلاف منهم، من بينهم المندوب البابوي (أدهمار) وقد دفع ذلك الوضع الغزاة هؤلاء إلى القيام بغزوات وجولات خارج أنطاكية، حتى يبتعدوا عن منطقة الوباء، فكان غزوهم لمعرة النعمان، فاستغاث أهلها لصاحب حلب (رضوان) وصاحب حمص (جناح الدولة) فلم ينجدهم أحد[5]، ولم يكن لدى أهلها من الامكانات، ما يمكنهم من المقاومة طويلاً فاضطروا إلى الاستسلام، إلا أن الصليبيين ـ كعادتهم ـ لم يحترموا الأمان الذي أعطوه لأهل المعرة [6]. وإنما غدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد.. ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به [7]. وقد قدر عدد القتلى من المسلمين في معركة معرة النعمان، أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي في حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف، ويصف تلك المذبحة بقوله: سار الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها وحاصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية في قتالهم.. ثم دخلوا المدينة

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 99.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 81.
(3) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 82.
(4) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 207.
(5) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص 207.
(6) زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (141/2 - 142).
(7) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 136.

ووضعوا في أهلها السيف ثلاثة أيام قتلوا فيها ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً[1]، وقد ذكر (رنسيمان) في تاريخه أن الصليبيين عندما دخلوا المدينة. أمعنوا في قتل كل من يصادفهم، واقتحموا الدور ونهبوها وأحرقوها[2]، وقد رثاها الشاعر وجيه بن عبد الله التنوخي بآبيات حزينة باكية، تأسف على موت أهلها، وضياع دورها فقال؟.

هـذه بلـدة قضـى الله يـا صـاح ::: عليهـا كمـا تـرى بـالخراب
فقـف العيسَـي وقفـة وابـك مـن ::: كـان بهـا مـن شـيوخها والشـباب
واعتبـر إن دخلـت يومـاً إليهـا ::: فهـي كانـت منـازل الأحبـاب

وأخيراً خرج الصليبيون في معرة النعمان على رأس جيش يقوده " ريموند " نحو بيت المقدس، أما "بوهيموند" فاختار البقاء في أنطاكية، وأسس فيها إمارة له. فتحولت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهراً في شمالي بلاد الشام [3]، تصول وتجول، ولا نجد من يردها إلى ديارها خائبه صاغرة.

ثالثاً: تأسيس مملكة بيت المقدس:

استغل الفاطميون فرصة ضعف الأتراك السلاجقة وتخاذل أمرائهم أثر اندحارهم إمام الصليبيين عند أنطاكية، ومقتل عدد كبير منهم فسار أمير الجيوش المصرية الأفضل بن بدر الجمالي في شعبان سنة 491هـ /1098م على رأس قواته إلى القدس، واعتقد الأراتقة حكام بيت المقدس التابعون للسلاجقة بأن تحصينات القدس العظيمة، والمقدرة الحربية لقبائلهم التركمانية ستمكنهم من الصمود حتى تأتيهم النجدة من دقاق حاكم دمشق، وكان في القدس أنذاك معظم بني أرتق وهم سقمان وايلغازي وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتي [4]، وجماعة من أقاربهما ورجالهما وخلق كبير من الأتراك، وحاول الأفضل في البداية أن يتبع الأساليب السليمة لتحقيق أغراضه فراسل كل من سقمان وايلغازي يلتمس منهما تسليم القدس من غير حرب ولا سفك دماء، فلم يجيباه إلى ذلك [5] وعند ذاك بدأ بقتال البلد، ونصب عليه نيفا وأربعين منجنيقاً فهدمت مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد واستمر القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً [6]، ويظهر أن الأخوين أيلغازي وسقمان كانا واثقين بجيشهم ومساندة عشيرتهم من التركمان إلا أن الفاطميين العبيديين استطاعوا تضييق الحصار وفتحت المدينة بالأمان عام 491هـ وسار سقمان وايلغازي ومن معهما إلى دمشق سنة 491هـ / 1098م، ثم غادروا دمشق [7].

إن الدولة العبيدية الفاطمية ساهمت في احتلال الصليبيين للمنطقة، فبدلاً من أن تقف مع

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 102.
(2) تاريخ الحروب الصليبية (369/1).
(3) الجهاد والتجديد للناصر ص 103.
(4) القدس عشية الغزو الصليبي ص109.
(5) المصدر نفسه ص 109.
(6) القدس عشية الغزو الصليبي ص 109.
(7) المصدر نفسه ص 110.

السلاجقة ضد الصليبيين راسلتهم وطلبت منهم الصلح، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر، عندما سمع بأن الصليبيين الذين وصلوا إلى بلاد الشام، اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة أعداء الدولة الفاطمية العبيدية، فكّر في عقد تحالف معهم ضد هؤلاء، فأرسل سفارة اجتمعت بزعمائهم أمام أنطاكية في شهر صفر 491هـ/ كانون الثاني 1098م وعرضت عليهم مشروع التحالف الذي تضمن البنود التالية:

- ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمال بلاد الشام.
- تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.
- يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
- يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة [1].

على أن سفارة الأفضل إلى الصليبيين، على الرغم من الحفاوة التي استقبلت بها، لم تؤدِ إلا إلى نتيجة واحدة وهي وقوف الصليبيين على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، ومن ثمَّ استقَّر رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة للاستيلاء على بيت المقدس[2].

إن المتتبع لدراسة التاريخ في مرحلة اغتصاب أوروبا لبلاد الشام وبيت المقدس في بداية القرن الخامس الهجري ونهاية العاشر الميلادي والانفراد بالمسلمين، ومحاولة القضاء عليهم سبقه عدة أمور منها:

- زرع دولة شيعية مؤسسها يهودي أو مجوسي - سمّى نفسه المهدي - ترفع شعار الإسلام، بادعاء انتسابها إلى فاطمة بنت رسول الله ρ ورضي الله عن فاطمة، تهدف إلى عزل دول الشمال الإفريقي، وخاصة مصر عن بقية بلاد الشام أثناء تعرضه للغزو الصليبي. هذه الدولة كانت لها مراسلات وسفارات مع الأوروبيين الصليبيين الذين عادوا لاغتصاب بيت المقدس، وأرض الشام ومصر، وعرضوا التعاون معهم ضد السلاجقة وسنرى بإذن الله في دراستنا المستقبلية طلبهم من الصليبيين المعاونة ضد نور الدين زنكي وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين.
- أن حكام هذه الدولة حرصوا على هدم الخلافة العباسية، التي كانت تحتاج إلى من يدعمها ويساندها ويأخذ بيدها بدلاً من الحرص على هدمها؛ لأن الخلافة هي السياج الحامي بعد الله لبلاد المسلمين من كيد أعدائها.
- ظهور الباطنية القرامطة مؤسسها أبو سعيد الجنابي رأس القرامطة سنة خمس وثمانين ومائة هـ الذين يدعون انتسابهم إلى علي بن أبي طالب والذين عملوا على هدم الخلافة العباسية،

(1) تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية، محمد طقوش ص 428.
(2) المصدر نفسه ص 428.

وإفساد عقيدة الأمة العجيب أنهم قصدوا دمشق في جحفل عظيم، فقاتلهم نائبها فهزموه عدة مرات، وكان ذلك بقيادة يحيى بن زكرويه الذي ادعى عند القرامطة أنه محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد كذب في ذلك.

- حرص حكام الدولة التي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية على إفساد عقيدة السلف، عقيدة الرافضة بالقوة على الأمة، وقتل أهل السنة والجماعة، وعلمائهم وفقهائهم، وسب الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله - رضوان الله عليهم - على المنابر، كما أن بعض حكامهم قد ادعوا الألوهية.

- عزل مسلمي مصر عن إخوانهم في بلاد الشام والشمال الإفريقي وأثناء العزل جرى القضاء على المقاومة الإسلامية ببيت المقدس وبلاد الشام والاستيلاء عليها [1].

لم يكن نجاح النصارى في انتزاع بيت المقدس من أيدي الفاطميين مصادفة بلا خلفيات، لا.. بل الذي يدرس تاريخ الروافض، بل إن الذي يدرس تاريخ الشيعة الروافض الباطنيين ويتعرف على هويتهم المشبوهة يسهل عليه استيعاب حقيقة الأمر الذي سارت عليه الأحداث؛ فالدولة الفاطمية الرافضة كانت إحدى الحركات الباطنية التي أعملت معاول الهدم في صرح الأمة الإسلامية، وكانت أيضاً سبباً في ضعف دولة الخلافة العباسية في التضحية بالأرض المقدسة، وتعامر الطرفان عن الخطر الصليبي منشغلين بالصراع بينهما. وما أشبه الليلة بالبارحة عندما انشغل العرب والترك بالنزاع بينهما حتى استلب النصارى الإنجليز أرض فلسطين ثم أسلموها إلى اليهود ولا تزال الليالي تشبه البارحات، لقد بلغ من عمالة الفاطميين أو بالأحرى الباطنيين العبيديين الراوافض - إن استعانوا بالصليبيين للقضاء على السلاجقة الأتراك، وفي الوقت الذي كان الصليبيون في طريقهم إلى القدس، وكانت مدن الشام تتساقط تحت أقدامهم، كان الفاطميون والسلاجقة يتناولون التنازع على المدينة المقدسة متجاهلين خطر الجيش النصراني ولم يحرك قائد الفاطميين ساكناً إلا عندما جاء الخبر بحصار الصليبيين للقدس[2]، ولاحت الفرصة الذهبية لأهل الصليب لكي ينفثوا أحقاد قرون خلت في جسد الأمة الإسلامية، ولكي يحققوا حلماً دينياً وهدفاً سياسياً ومغنماً اقتصادياً لا تعوض فرصته خاصة أن الوقت كان في بداية الألفية الثانية التي اعتقدت طوائف كثيرة من النصارى أن المسيح عيسى ابن مريم سيعود فيها إلى الأرض ليحكمها كلها من القدس، انطلاقاً مما يسمي بالعقيدة الألفية التي كانت سبباً في عصرنا هذا أيضاً لتعاون النصارى مع اليهود في السيطرة على بيت المقدس كله استعداداً لمقدم الألفية الثالثة، ألفية المسيح [3].

1 - مقدمات الاحتلال: ما إن استولى الصليبيون على نيقية حزيران عام 1097م بعد حصار دام شهراً، حتى زحفوا إلى أسكي شهر التي سقطت بأيديهم في أول تموز/ يوليو من العام نفسه، ثم إلى مدينة الرها، ثم وصلوا إلى أنطاكية، فاحتلوها بعد حصار طويل كما مرّ معنا واتجه الصليبيون

(1) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ الطريق إلى بيت المقدس ص 69.
(2) قبل الكارثة نذير ونفير ص 129.
(3) قبل الكارثة نذير ونفير ص 130.

بعد ذلك جنوباً فاحتلوا معرة النعمان ثم أخلوها بعد أن أحرقوها وقتلوا من أهلها " ما يزيد على مائة ألف "[1]، ثم احتلوا " حصن الأكراد " ثم أنطرطوس وهي طرطوس الحالية " بعدد من الأدلاء والجنود " [2].

وفي 16 آيار مايو 1099م غادر الصليبيون طرابلس وتابعوا تقدمهم جنوباً فاجتازوا البترون وجبيل ووصلوا في 19 آيار، مايوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب ولم يكن للفاطميين عساكر في ممتلكاتهم الشمالية، باستثناء بعض الحاميات في بعض المدن الساحلية[3]، مما أتاح للصليبيين التقدم بسهولة وبلا مقاومة، فدخلوا بيروت بلا قتال، ثم تقدموا نحو صيدا فبلغوها في 20آيار 1099م، ولكنهم لقوا مقاومة عنيفة من حاميتها، إلا أنهم استطاعوا التغلب عليها وتابعوا تقدمهم نحو صور حيث بقيت حامية صور خلف الأسوار ولم تناجزهم العداء [4].

وتابع الصليبيون تقدمهم بعد أن غادروا صور بتاريخ 23 آيار 1099م، فبلغوا ضواحي عكا في 24 آيار دون أن يلقوا مقاومة تذكر، ثم وصلوا إلى حيفا، فقيسارية حيث أقاموا أربعة أيام استأنفوا بعدها، تقدمهم نحو الرملة فبلغوها في 3 حزيران 1099م وفي 6 حزيران تابع الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس فبلغوا أسوارها مساء 7 حزيران حيث عسكروا [5].

2 ـ القوى المتواجهة:

ـ **القوات الصليبية:** بلغ عدد القوات الصليبية التي وصلت إلى أسوار القدس وتمركزت حولها وبدأت بمحاصرتها نحو أربعين ألفاً من مختلف الأعمار ذكوراً وإناثاً، وكان عدد الرجال المقاتلين منهم نحو عشرين ألفاً، وقد انتشر الصليبيون حول القدس، على امتداد بعض أسوارها، وليس كلها، وذلك بسبب نقص عدد قواتهم [6]، ورغم أن القوات الصليبية كانت مزودة بأحدث الأسلحة وآلات الحصار والتدمير، فإنها وجدت نفسها عاجزة عن تنفيذ حصار كامل ومطبق حول المدينة بسبب نقص كبير في عدد المقاتلين من جهة وبسبب نقص في آلات الحصار من جهة أخرى، كما أن إطالة أمد الحصار حول القدس سوف يؤثر سلباً على معنويات الجند الذين هم آتون من بلاد باردة إلى أرض قاحلة لا ظل فيها ولا أشجار، وفي صيف حار لاهب لن يستطيع أولئك الجند تحمل حرارته؛ لذا قرر القادة أن يُعُدوا لهجوم عاجل على المدينة [7].

ـ **قوات المسلمين:** كان المسلمون ـ في داخل أسوار مدينة القدس ـ في وضع دفاعي متين فالمدينة بحد ذاتها، تعتبر من أضخم المعاقل والحصون في ذلك الزمان، فأسوارها التي يقف

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 54.
(2) المصدر نفسه ص54.
(3) المصدر نفسه ص 54.
(4) الحروب الصليبية (411/1).
(5) الحروب الصليبية (411/1 - 414).
(6) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 55.
(7) المصدر نفسه ص 57.

الصليبيون قبالتها، تكاد تكون عصّية على الاختراق أو الاجتياز، إضافة إلى ذلك تظل القدس عصية على أي هجوم من جهاتها الثلاث: من الشرق والجنوب الشرقي حيث يلفها وادي قدرون أو وادي جهنم، ومن الجنوب حيث يلفها وادي هنّوم أو وادي الربابة، ومن الغرب حيث يلفها وادي الروث أو وادي تيروبيون، فهي إذن محصنة من هذه الجهات بتحصينات طبيعية، إضافة إلى ما تمنحها أسوارها وحصن داود الواقع في منتصف السور الغربي، والذي يسيطر على جزء كبير من محيط المدينة، من مناعة وقوة [1]. يضاف إلى ذلك الخنادق التي حفرها المدافعون خارج الأسوار، في الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، وفي الجهة الشمالية من السور، لكي تعيق تقدم المهاجمين، وهكذا، لم يكن ممكناً مهاجمة المدينة إلا من الجهتين: الشمالية، والشمالية الغربية فقط، وهي الجهات التي ركز الصليبيون، في حصارهم عليها [2]وكان في المدينة حامية مؤلفة من مصريين وسودانيين تقدر بألف مقاتل بينما تداعت أعداد كبيرة من الحصون القائمة في المناطق المجاورة ومن الريف للدفاع عن المدينة، فبلغ عدد المدافعين عنها نحو أربعين ألف محارب شجاع مجهزين تجهيزاً رائعاً بحسب قول الصوري [3]. والصوري لا يؤكد ذلك بل، يقول وذكرت إحد الروايات ونعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه كثيراً [4].

ـ **قائد الحامية:** كان قائد تلك الحامية هو الحاكم الفاطمي نفسه (افتخار الدولة) الذي ما إن علم باقتراب الصليبيين من أسوار المدينة، حتى باشر باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتها، فطمر كل الينابيع والآبار الواقعة خارج المدينة كي يحرم المهاجمين من التزود بمياهها، وأخرج منها المسيحيين أهلها، خشية أن يتعاطف هؤلاء مع أبناء دينهم المهاجمين، فيوقعوا الاضطراب والفوضى في المدينة، ورغبة منه في توفير ما يمكن أن ينفقوه من زاد وغذاء للمسلمين المحاصرين [5].

ـ **أسلحة المدافعين عن المدينة:** وأما أسلحة المسلمين المدافعين عن المدينة، فإنها كانت بحسب زعم رنسيمان والصوري تضاهي أسلحة الصليبيين نوعية وتفوقها عدداً، خصوصاً وأنهم أي المسلمين، كانوا قد احتاطوا لهذا الأمر فجمعوا الأخشاب اللازمة لصنع الآلات الحربية الملائمة للدفاع عن المدينة المحاصرة كالمجانيق وسواها، وأنشأوا داخل الأسوار، آلات حربية معادلة في ارتفاعها لارتفاع آلات الصليبين، وبينما كان الصليبيون يجهدون بدورهم، لإعداد آلات الحصار التي تنقصهم من سلالم ومجانيق، كان المسلمون لا يفتأون يراقبون تصرفاتهم بواسطة حراس يقظين كانوا قائمين على الأسوار باستمرار، ثم يضاهونهم في صنع آلات مماثلة [6]، ويقول الصوري في ذلك كانت الآلآت الحربية التي يضعها تُصنع من مواد أفضل من المواد التي صُنعت الآتنا منها، وقد قاموا بهذا الحماسة المثلى، حتى لاتكون آلات حربهم أدنى من ألا تنافي الإنشاء أو في المادة. وكان

(1) المصدر نفسه ص 57.
(2) المصدر نفسه ص 57.
(3) المصدر نفسه ص 59.
(4) المصدر نفسه ص 59.
(5) الحروب الصليبية (421/1).
(6) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 60.

الحراس يراقبون من على الأسوار والبروج كل ما أنجز في جيشنا، وبشكل خاص ما تعلق بالوسائل التي ارتبطت بالآت الحرب، حيث نقلوا على الفور، جميع تفاصيل ما راقبوه إلى الرجال الرئيسيين للقدس، الذين تنافسوا بمهارة، وكافحوا في سبيل محاكاة أعمال المسيحيين [1].

3 - الحصار: ركَّز الصليبيون كل قواتهم على الأماكن التي تقرّبهم من الأسوار؛ وذلك لعدم توفر العدد الكافي من المقاتلين لفرض حصار على المدينة بكاملها، فاتخذ روبرت النورماندي موضعه على امتداد السور الشمالي في حين حاصر كل من جودفري وتانكِرد المدينة من الناحية الغربية، وتمركز ريموند الضجلى إلى الجنوب من موضعهما حيث أقام على جبل صهيون، أما القطعان الشرقي والجنوبي الشرقي فكانا مكشوفين لم يحرسهما أحد. واجهت المحاصِرين - في بادئ الأمر - عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فوراً لعل أهمها:

* مقاومة الحامية الفاطمية، إذ توافر لافتخار الدولة المؤن والماء والأسلحة التي تفوَّقت على أسلحة الصليبين، وأمل أن يصمد في وجه الحصار المدة الكافية لوصول النجدة التي طلبها من القاهرة.

* تأمين الماء نتيجة ما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر وللحصول على الماء كان لابد للصليبيين أن يسيروا ستة أميال أو أكثر، مما يعرَّضهم لهجمات المسلمين كما أخذت مؤونهم في النفاذ.

* الحرارة المرتفعة وقسوتها عليهم.

* تجدد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم.

* انتشار إشاعة بينهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من القاهرة، وهو في طريقه لإنقاذ المدينة[2]. وتبين لهم أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، وينبغي عليهم أن يبادروا بالهجوم على المدينة والاستيلاء عليها [3].

4 - الهجوم الأول للقوات الصليبية: قرر القادة الصليبيون شن هجومهم على المدينة في فجر اليوم السادس للحصار (أي في فجر 13 حزيران يونيو)، وأعطيت الأوامر للقوات بالاستعداد للهجوم بالعتاد الكامل، وبحماية دروعهم، وأذيعت تلك الأوامر " بصوت المنادي" وعلى الجميع من أدناهم على أعلاهم في اليوم السباق للهجوم، أي اليوم الخامس للحصار[4] وفي الساعة المحددة، انطلق الصليبيون باتجاه السور " بكل ما يدخرون من حماسة. وهاجموا السور الخارجي للمدينة من الجهة الشمالية واستمر القتال ضاريا بين الفريقين من الفجر الباكر وحتى حوالي الساعة السابعة من

(1) المصدر نفسه ص 61.
(2) تاريخ الفاطميين ص 435.
(3) المصدر نفسه ص 435.
(4) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 61.

النهار، حين استطاع المهاجمون أن يدمروا القسم الخارجي من السور الشمالي وأن يتغلبوا على حامية السور التي انكفأت إلى الداخل لتدافع عن الأسوار الداخلية، وأصبح السور الخارجي تحت سيطرة المهاجمين، لولا أن هؤلاء افتقدوا الوسائل اللازمة لتسلق السور الذي احتلوه، من سلالم وأوهاق وحاولوا تسلقه جاهدين، ولكن دون جدوى فعادوا أدراجهم إلى مراكزهم الأساسية، بعد خسارة لا يستهان بها في الرجال [1].

5 - العودة إلى الاستعداد للقتال: تدارس القادة الصليبيون الوضع، بعد فشل هجومهم على المدينة في اجتماع عقد لهذه الغاية بتاريخ 15 حزيران، فقرروا التوقف عن تنفيذ أي هجوم ريثما يتم الإعداد العسكري للمعركة الحاسمة، وكان هذا الإعداد العسكري للمعركة الحاسمة، وكان هذا الإعداد يقتضي الإسراع في إنشاء ما يحتاجه الجيش من آلات التدمير والاقتحام، وأهمها المجانيق وسلالم التسلق، وكانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنع هذه آلالات، وأهمها الأخشاب والحبال والمسامير والأقفال، ولكنهم تدبروا أمر الأخشاب من المناطق البعيدة عن القدس حيث تكثر الأشجار واستطاع تنكرد والكونت روبرت كونت النور ماندي، وكونت الفلاندر الحصول على كميات من هذه الأخشاب التي نقلت إلى المعسكرات على ظهور الإبل والعربات والأسرى المسلمين، بينما تدبروا أمر الحبال والمسامير والأقفال من سفينتين، مبحرتين من جنوى رستا في ميناء يافا وكان المسلمون قد أخلوا المدينة وهي تحمل لهم مؤناً وأسلحة ومعدات للحصار. ونشط العمال الحرفيون من حدادين ونجارين، بإشراف غودفروا وريموند دي سان جيل في إعداد آلات الحرب اللازمة من مجانيق وعرّادات وأوهاق وكباش دك وآلات أخرى، كما صنعوا أبراجاً خشبية تطل على السور وتشرف عليه وهي برج غودفروا ريموند، وبرج تانكرد [2] في هذه الأثناء، وبينما كان الاستعداد للهجوم الحاسم يجري بطيئاً في معسكرات الصليبيين، كانت معاناة هؤلاء من افتقارهم إلى الماء والزاد تزداد، فقد وصلوا، في بحثهم عن الماء حتى نهر الأردن، وكانت الأغنام والأبقار المعدة لإطعام الجند تنفق، بدورها، جوعاً وعطشاً، ومن شدة الحر، وذلك رغم مساعدة المسيحيين من أهل البلاد أولئك الذين أظهروا الولاء للصليبيين، فأضحوا أدلاءً يرشدونهم إلى الينابيع والغابات الواقعة من الجهات المجاورة[3]، ومع ذلك، فقد كان عليهم أن يدفعوا عن مواقعهم غارات المسلمين وكمائنهم، وسهام حامية المدينة وقذائفها. وفوق ذلك كله، فقد دب الخلاف بين قادة الحملة، وخصوصاً بين تانكرد الذي كان قد استولى على بيت لحم ورفع لواءه فوق كنيسة المهد، مما أغضب باقي القادة، كما دبَّ الخلاف بينهم حول مسألة مستقبل القدس بعد احتلالها هذا بالإضافة إلى المعاناة اليومية للجند، حيث كان يموت العديد منهم، يومياً، ظمأً وحراً وجوعاً، مما دفع بالكثيرين إلى التخلي عن الحملة ومحاولة العودة إلى بلادهم [4].

(1) المصدر نفسه ص 62.
(2) المصدر نفسه ص 63.
(3) المصدر نفسه ص 63.
(4) المصدر نفسه ص 63.

ويتحدث كل من " غروسيه " و " الصوري " و " رنسيمان " عن الوسائل التي استخدمها القادة الصليبيون لرفع معنويات جندهم التي انهارت إلى حد كبير، وخصوصاً عندما سرت في صفوفهم إشاعة عن تحرك جيش من مصر باتجاه القدس لتخليصها من حصار الفرنجة لها وكان ذلك في أول تموز/ يوليو، فعمدوا يوم 8 تموز إلى إعلان الصوم الكامل، والحج، وجماعة، إلى جبل الزيتون، بقيادة رجال الدين والقادة العسكريين، وسار الصليبيون جميعاً إلى " الجبل المقدس " وخرج الجند المسلمون إلى الأسواق يشاهدونهم وهم يسخرون وعلى الجبل، ألقى كل من القديس بطرس الناسك وريموند أجيل قسيس ريموند وأرنولف روز قسيس روبرت النورماندي عظة ألهب بها عواطف الجند والقادة وحماستهم، فعادوا، وقد نسوا جميعهم ما كان بينهم من شاحنات؛ ليعملوا يداً واحدة في سبيل " تحرير" بيت المقدس[1].

6 - الهجوم الحاسم: بدأ الصليبيون هجومهم على القدس ليل 13 - 14 تموز/ يوليو 1099م على محورين:

المحور الأول: شمال - جنوب بقيادة، غودفروا دي بويون ومعه روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي، وتانكرد. وهو من باب الساهرة باتجاه الحرم الشريف.

المحور الثاني: جنوب شمال، بقيادة ريموندي سان جيل كونت تولوز ومعه بعض النبلاء والقادة، وهو من جبل صهيون " قبالة باب صهيون، باتجاه القلعة أو حصن داود ووافقاً لما ذكره المؤرخ ريموند آغيلرز، وهو شاهد عيان للمعركة، بلغ عدد المهاجمين 12 ألف مقاتل من المشاه 1200 أو 1300 مقاتل [2]. إلا أن المهاجمين لم يتمكنوا من إحراز أي تقدم طيلة اليوم الأول 14 تموز، إذ إنهم كانوا يجابهون بما ترميه عليهم آلات الحرب ومعدات القذف من نبال وقسي وسهام وقذائف حجرية وخرق مبللة بالزيت ومشتعلة وقوارير ملتهبة ونار إغريقية، بينما كانت حجارتهم تسقط على أسوار المدينة وتحصينات المسلمين بلا أية فعالية تذكر نظراً لأن المسلمين حصنوا تلك الأسوار والتحصينات " بأكياس مليئة بالقش والتبن " وبالحبال والمنسوجات والعوارض الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحرير، وكانت هذه تشكل، بطراوتها وليونتها عازلاً بين الحجارة المقذوفة وتلك الأسوار والتحصينات، إلا أنه، في صباح اليوم التالي اعتمد المهاجمون أسلوباً آخر في القتال [3].

- عمليات المحور الأول المحور الشمالي: بدأت عمليات هذا المحور، بقيادة غودفروا دي بويون، ليل 13 - 14 تموز/ يوليو، بمحاولة تقدم من جهة باب الساهرة نحو السور، يصحبها طمر الخندق العريض، والعميق المحفور حوله من الخارج بغية دفع آلات الحرب والبروج المتنقلة نحوه، ولكن الرمايات الكثيفة التي نفذتها حامية المدينة، على هذا المحور، بمختلف أنواع الأسلحة، أعاقت تقدم المهاجمين إلى حد كبير فبينما كان المهاجمون يجهدون لدفع بروجهم وآلات حربهم نحو السور

(1) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 64.
(2) المصدر نفسه ص 66.
(3) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي 66.

بغية السيطرة عليه وعلى التحصينات القائمة خلفه، كان المدافعون يجهدون في عرقلة أعمال المهاجمين هذه برميهم بالقذائف المشتعلة، والنبال المحملة بالكبريت الملتهب والإسفلت والزيت، أو أي شيء آخر يزوَّد ألسنة النيران بالوقود بالإضافة إلى ما كانت ترميه المجانيق وآلات الحرب الأخرى من نبال وسهام وحجارة ضخمة، وكان المهاجمون ينشطون في إطفاء الحرائق التي كانت تشتعل، من جراء ذلك، في آلاتهم الحربية. وهكذا انقضى اليوم كله دون أن يحقق المهاجمون تقدماً يذكر، خصوصاً وأن رماياتهم على سور المدينة وتحصينات حمايتها لم تكن فعّاله بالقدر الكافي؛ وذلك بسب التدابير التي اتخذها المدافعون عن ذلك السور وتلك التحصينات وما أن بدأ الليل يقترب حتى بدأ النزاع يخفّ ورمايات الفريقين تقلّ تدريجياً، دون أن يتخطّى أي منهما عن حذره وسلاحه، ومرليل 14 - 15 والفريقان على حذرهما وسلاحهما، يرقب كل منهما تحركات خصمه لمنع وقوع أي ضرر عليه، فبينما كان المدافعون حذرين كي لا يتسلل العدو إلى داخل المدينة عن طريق إحداث ثغرة في الصور، أو تسلق التحصينات [1]؛ لذا كان الخوف والحذر مستمرين ومتبادلين بين الفريقين طيلة ليل 14 - 15 تموز/ يوليو إلا أن القتال مالبث أن استؤنف صباح يوم 15 تموز، وذلك عندما استأنف غودفروا هجومه بعنف، على السور، محاولاً أن يقترب منه ببرجه المتحرك وآلات حربه، وكان البرج مغطّى بجلود الحيوانات المسلوخة حديثاً، وذلك لحماية الجسور من النار الإغريقية [2]، والتي يرميها المسلمون واستطاع غودفروا، بعد جهد ومشقة، أن يصل ببرجه إلى حافة السور، وأن يمدَّ، عند ظهر ذلك اليوم، جسراً من البرج إلى السور، عند باب الساهرة، وكان " غودفروا " وأخوه " يوستاس" في الطابق العلوي من البرج، عندما تقدم اثنان من مقاتليه " وهما ليتولد وجبلبرت من تورناي " واقتحما السور، فتبعها كل من غودفروا وأخيه، فكانوا أول من دخل مدينة القدس من المقاتلين الصليبيين صبيحة يوم 15 تموز، يوليو 1099م. وما لبث، بعد ذلك، أن تدافع المهاجمون نحو السور يتسلقونه بسلالمهم وأوهاقهم، على رأسهم روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي وتانكرد، مما جعل المدافعين يتراجعون، مذعورين، نحو الحرم الشريف، لكي يجتموا به ولكن المهاجمين تبعوهم إلى المسجد الأقصى حيث جرت، كما يذكر مؤرخ " صليبي " مجهول " مجزرة " كان من نتيجتها أن " مشى رجالنا في الدم حتى كعوب أقدامهم "[3] بعد ذلك، وزع غورفروا المهام على قادة الفرق، فأرسل منهم من يفتح " باب العمود " للقوى التي كانت لا تزال خارج المدينة، كما أرسل فرقة اقتحمت المدينة من الشرق، من باب يهوشافاط. أما تانكرد فتقدم من تلقاء نفسه، نحو " الحرم الشريف " حيث كانت " قبة الصخرة" بما تزخر به من ثروة.

ذكر ابن الأثير أنها كانت نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل 3600درهم، وتنوراً لا مصباحاً كبيراً " من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، و... من القناديل الصغار 150قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً " فغنمهما كلها وغنم الصليبيون من المسجد الأقصى، كما

(1) المصدر نفسه ص 67.

(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي ص 68.

(3) المصدر نفسه ص 68.

يذكر ابن الأثير أيضاً ما لا يقع عليه الإحصاء [1]، وكان قد لجأ إلى سطح المسجد مئات من المسلمين أعطاهم "تانكرد " الأمان وأعطاهم رايته ضماناً لهم، إلا أنهم، في اليوم التالي، ذبحوا جميعاً، ذبح النعاج، على أيدي جنود صليبيين دخلوا الحرم الشريف وقتلوهم جميعاً بلا استثناء لولد أو شيخ أو امرأة، غير عابئين بالأمان الذي أعطاهم إياه تانكرد، ولا برايته التي رفعوها اعتقاداً منهم أنها ستحميهم [2].

ـ عمليات المحور الثاني " المحور الجنوبي ": بدأ ريمون، كونت تولوز، يعد للهجوم قبل ثلاثة أيام من بدئه، أي من تاريخ 12 تموز/يوليو، حيث كان عليه أن يحضر خندقاً عريضاً وعميقاً يفصل بين السور من الخارج وبين مواقعه، ويجعل وصوله إلى السور، مع برجه وآلات حربه، صعباً إلم يكن مستحيلاً وقد لاقى ريموند مشقة كبيرة في أداء هذه المهمة، خصوصاً وأن نيران الحامية " ومنها النار الإغريقية " التي كانت تقذف عليه من داخل السور، ومن حصن داود أو القلعة لم تكن لتوفر له الراحة والأمان لبلوغ المهمة، ومع ذلك فإن ريموند استطاع، مساء 14 تموز/ يوليو، أن يدفع ببرجه المتنقل فوق الخندق، ويبلغ به السرور.

بعد ذلك، وليل 14 - 15 تموز بدأ ريموند وقواته محاولة صعبة للتقدم من جبل صهيون قبالة باب النبي داود باتجاه او حصن داود. وقد لقي المهاجمون، على هذا المحور، مقاومة أشد من تلك التي لقبها المهاجمون على المحور الأول، خصوصاً، وأن حاكم المدينة أو قائد حاميتها (افتخار الدولة) كان يقود الجبهة المواجهة لريموند وقواته. واستمر القتال طيلة ظهر 15 تموز، وفي هذه الأثناء، كان غودفروا قد احتل الجهة الشمالية وتوغل في المدينة دون أن يعلم ريموند بالأمر، لا خصمه افتخار الدولة، الذي كان يقاتل في مواجهته إلا أن صرخات الجنود المنتصرين وصيحات الرعب والفزع التي كانت تصدر عن المسلمين الهاربين من وجه المهاجمين أيقظت افتخار الدولة على الحقيقة المرة، كما نبهت ريموند إلى انتصار خلفائه في الجهة الشمالية، فانكفأ افتخار الدولة برجاله نحو القلعة أو حصن داود ليعتصم فيها، بينما تقدم ريموند إلى السور فأنزل الجسر عليه من برجه المتنقل بدون مقاومة، ورفع سلالمه إلى الأسوار، ودخل المدينة من دون أدنى إعاقة [3]، من قبل المسلمين الذين كانوا قد تخلوا، نهائياً عن القتال، وفتح ريموند الباب الجنوبي (باب النبي داود) عليه السلام لمقاتليه فدخلوا المدينة منتصرين. أما افتخار الدولة، فقد طلب من ريموند الأمان لكي يخرج ورجاله من القلعة ويغادروا المدينة، فأمنه ريموند، وخرج افتخار الدولة ورجاله عسقلان حيث انضموا إلى ما تبقى في فلسطين من جيوش تابعة للدولة الفاطمية. وهكذا سقطت القدس كلها، بيد الغزاة الصليبيين، يوم الجمعة الخامس عشر من تموز عام 1099م الموافق للثالث والعشرين من شعبان عام 492هـ، وذلك بعد حصار دام 39 يوماً من 7 جزيران/ يوليو[4].

(1) الكامل في التاريخ (405/8).
(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 69.
(3) المصدر نفسه ص 70.
(4) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 70.

7- وحشية الحضارة الغربية الصليبية: يذكر ابن الأثير أن الصليبيين قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم [1] أما من كان في القدس من اليهود، في هذا الأثناء وكان افتخار الدولة قد سمح لهم بالبقاء في المدينة بينما أمر المسيحيين بالخروج منها خشية أن يتعاطفوا مع أبناء دينهم، فقد لجأوا إلى كنيسهم إلا أن المقاتلين الصليبيين حشد جميعاً في معبدهم الكبير حيث لجأوا، وأحرقوا المعبد، وهم بداخله، فقضوا جميعهم حرقاً بحجة أنهم ساعدوا المسلمين [2].

ويقول ابن القلانسي في ذلك، وهو قد عاش هذه الفترة وزامنها: وقتل خلق كبير وجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم [3]، ويذكر رنسيمان أن مذبحة القدس تركت أثراً عميقاً في جميع العالم وأن عدد ضحاياها ليس معروفاً بالضبط.

وأن القدس خلت بعد هذه المذبحة، من سكانها المسلمين واليهود، وأنه لم يثر التعصب الإسلامي، من جديد، إلا التعصب المسيحي الذي دلّ عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء[4]، ويصف الأسقف وليم الصوري هذه المذبحة وصفاً تقشعر له الأبدان، إذ يقول: بات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها، والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات، هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم.. ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط، قرابة عشرة آلاف من الكفرة بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كل مكان من المدينة، في الشوارع والساحات، حيث قدّر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلى داخل حرم الهيكل، وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكنهم أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم، وقتلت هذه الضحايا أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي[5].

ووصف شاهد عيان إفرنجي المذبحة التي أحدثها الصليبيون بالقدس بقوله: شاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج.. وكنا نرى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام [6]. ووصف ذلك

(1) الكامل في التاريخ (405/8).
(2) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 70.
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 222.
(4) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 71.
(5) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 71.
(6) قصة الحضارة (25/4).

أفرنجي آخر كان مرافقاً للصليبيين: كان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى [1]، وقد انطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة من داخل المساجد والدور، واستمر الصليبيون في القتل والنهب لمدة أسبوع [2]. وأصدر قادة الصليبيين أمراً بطرح جثث المسلمين خارج المدينة التي امتلئت بالجثث فقام بهذه المهمة العدد القليل من المسلمين الذين وقعوا أسرى بيد الصليبيين ولم يقتلوا، وفقراء الجيش الصليبي مقابل راتب يومي والقوهم أمام أبواب المدينة وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً وما تسنى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة مثل هذه المذبحة الصليبية: لقد رأينا، في كل شوارع المدينة وأحيائها، تلال من الرؤوس والأيدي والأرجل. لقد كان الناس يمشون علنا وبهدوء على جثث الرجال والخيل يستطرد: إنني لا أقدم في وصف هذا، سوى القليل من الرعب الذي شاهدته، وإذا أنا وصفت كل ما شاهدته فلن تصدقوني [3]، وإننا لنستذكر أمام وحشية الحضارة الغربية وهمجية الروح الصليبية هذه ما قاله المفكر الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: إذ قال: لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب[4]، ولا شك أن رجال الدين المسيحي لهم دور أساسي في هذه المذبحة، فقد كانوا يحفزون الصليبين للانتقام للسيد المسيح ابتداء بالبابا أوربان الثاني وانتهاء برجال الدين المرافقين للحملة الصليبية[5].

8 - دور رجال الدين المسيحي في سقوط القدس: ويظهر دور رجال الدين المسيحي في سقوط القدس بصورة جلية، فبعد أن اشتدت مقاومة المسلمين لهم، مع اشتداد درجة حرارة الجو عليهم، وانعدام مياه الشرب، شعر رجال الدين المسيحي بالإحباط والوهن الذي أصاب الصليبيين وقد قام أحد القساوسة وأشاع بأنه رأى الأسقف أدهيمر في منامه يأمره أن ينبه الصليبيين بالكف عن أنانيتهم، وأن يصدقوا النية في أداء المهمة التي خرجوا من أجلها، وأن يتجهوا بقلوب صافية إلى الله، وأكد لهم أن النصر سيتم لهم خلال أيام قلائل، على أن يخرجوا حفاة في موكب يسيرون به حول أسوار بيت المقدس [6]. وعلى الفور عقد قادة الحملة الصليبية الأولى اجتماعاً يدرسون فيه كيفية تنفيذ ما طلبه أدهيمر في هذه الرؤيا. ويصف المؤرخ اللاتيني توديبود - أحد المشاركين في هذه الأحداث فيقول: عقد قادتنا اجتماعاً أوصاهم فيه المطران والقساوسة - حفاة الأقدام - يرتدون ملابس الكهنوت المقدسة، يحملون في أيديهم الصلبان.. ينشدون المزامير، ويدعو السيد عيسى المسيح لتخلص المدينة المقدسة، والقبر المقدس من أيدي الكفرة، وأن يصنعها بين أيادي المسيحيين حتى يتمكنوا من أداء طقوسه المقدسة.. وكان جميع رجال الدين يرتدون نفس الملابس ويحيط بهم جميعاً على الجانبين الفرسان وتابعيهم بكل عدتهم وعتادهم [7]، وعندما رأى المسلمون موكب الصليبيين

(1) أعمال الفرنجة ص 118 القدس عشية الغزو الصليبي ص 122.
(2) القدس عشية الغزو الصليبي ص123.
(3) حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ص 73.
(4) المصدر نفسه ص 73.
(5) القدس عشية الغزو الصليبي ص123.
(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدني في الجهاد ضد الصليبيين ص 245.
(7) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 245

الحفاة وهم يطوفون حول أسوار بيت المقدس، وقفوا على طول أسوار المدينة يحملون المصاحف المغطاة بالقماش على أسنة الرماح وينفرد - توديبود كشاهد العيان - بهذا الوصف الدقيق لرد فعل المسلمين على مسيرة الصليبيين حول بيت المقدس، فأوضح أن المسلمين عندما رأوا ذلك المشهد، ساروا على نفس الطريقة على طول أسوار المدينة يحملون رمحاً مغطاة بقماش مرسوم عليه اسم الرسول ρ ولما وصل المسيحيون عند كنيسة القديس ستيفن، بينما وقف المسلمون يصيحون ويهتفون فوق الأسوار، ويدقون طبولهم في ضجيج وصخب وجعلوا المسيحيين عرضة لكل ما يستطيعون ويقدرون عليه من سخرية واستهزاء [1]، ويستكمل توديبود وصفه قائلاً: وكان أسوأ ما في الأمر أن المسلمين أقدموا على تحطيم الصليب المقدس بقطعة من الخشب أمام أعين المسيحيين جميعاً.. ذلك الصليب الذي أراق المسيح دمه عليه وافتدى بذلك خلاص البشرية جميعاً.. وإمعاناً في أذية المسيحيين فقد قذفوا بحطامه من فوق الأسوار وهم يصيحون استهزاء بالصليب[2]، وعندئذ ازداد حماس الصليبيين فقاموا بهجوم شامل على بيت المقدس في اليوم التالي للمسيرة، وسقطت المدينة في أيديهم على الرغم من المقاومة العنيفة التي قام بها المسلمون لصد الصليبيين عن مدينتهم، ولما دخل الصليبيون المدينة قاموا بعمل مذبحة رهيبة لكل من وجدوه بالمدينة [3]. وهكذا يتضح لنا كيف كان رجال الدين المسيحي يستغلون قوة تأثير العامل الديني على عقول المسيحيين فيقوموا بترويج الإشاعات والأساطير ذات الطابع الديني لإثارة مشاعر المقاتين ارتفاعاً ويتفانون في القتال حتى ينتصروا ويحققوا أغراضهم وأطماعهم الاستعمارية في الأراضي المقدسة، هذا في الوقت الذي لم نعثر فيه في بطون المصادر الإسلامية ما يفيد عن دور جدي للفقهاء والعلماء في تلك الفترة الزمنية يعتمد على إلقاء الخطب الحماسية التي تذكر المقاتلين بامجاد المسلمين الأول وانتصاراتهم أيام الرسول ρ والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - من بعده فتزداد حماستهم وترتفع روحهم المعنوية مما يساعد على مواصلة القتال والانتصارات على أعداء الدين وتحرير بلادهم من براثن الاستعمار الصليبي، ولعل ذلك مرجعه إلى هول المفاجأة التي أصابت العالم الإسلامي وقتئذ بالعدوان الصليبي على المنطقة فضلاً عن انصراف العلماء والفقهاء لفض بعض المنازعات القائمة بين أقطاب العالم الإسلامي حينئذ وهم العباسيون والفاطميون والسلاجقة والعمل على توحيد جهودهم لمواجهة العدو الصليبي ومن ناحية أخرى ربما يكون أولئك الفقهاء لم يدركوا أهمية المناطق التي استولى عليها الصليبيون مثل الرها وأنطاكية، ولكن عندما فقدوا بيت المقدس أفاقوا من هول الصدمة وبدأوا يتحركون ويباشرون جهودهم فقام كثير من الفقهاء والعلماء والقضاة في بلاد الشام بدور كبير في توعية الناس في كل مكان بهذا الخطر الفظيع، وبضرورة الوقوف صفاً واحداً لصد هذا العدوان الغاشم، فخرجت جماعات كثيرة من مسلمي بلاد الشام وبصحبتهم الكثير من العلماء والفقهاء، واتجهوا إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة العباسي وبالسلطان السلجوقي، واجتمعوا بالناس في

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 246.

(2) المصدر نفسه ص 246.

(3) المصدر نفسه ص 246.

المساجد وأعلموا الجميع بما لاقاه المسلمون من مذابح بشعة على أيدي الصليبيين، وألقوا الشعر في ديوان الخليفة في بغداد يحثون فيه أولي الأمر على سرعة إنجاد أهل الشام حماية للدين وللمحارم، فاضطر الخليفة إلى الاستجابة وقام بندب الفقهاء للخروج إلى البلاد لتحريض الملوك على الجهاد، وعلى الرغم من قيام الفقهاء بالمهمة على الوجه الأكمل، إلا أن ذلك لم يأت بطائل ولم يحرك ساكنا، فعاد الفقهاء إلى بغداد [1]، وجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الأثير قام بالتعقيب على حالة التفكك التي أصابت العالم الإسلامي في تلك الفترة، والتي أدت إلى ضياع صرخات واستغاثات المسلمين بلا استجابة من قبل أولى الأمر، فأرجعها إلى اشتغال الحكام والملوك المسلمين وعساكر الإسلام بقتال بعضهم بعضاً، مما ساعد على تفرق المسلمين واختلاف الأهواء وتمزق الأموال [2].

9 ـ فشل الفاطميين في استعادة البيت المقدس: كان سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين بمثابة الضربة القاصمة التي وجهت إلى العالم الإسلامي بصفة عامة، وإلى الدولة الفاطمية بصفة خاصة ـ وبرز صراع على المصالح بين الفاطميين والصليبيين ـ فأخذ الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي يفكر جدياً في استعادة هذه الجزء من الأراضي الإسلامية، فأخرج من مصر ثلاث حملات حربية في الفترة الممتدة من 495 ـ 499هـ/1101 ـ 1105م موجهة ضد القوات الصليبية الموجودة في فلسطين؛ لكي يثبت للصليبيين مدى يقظة الدولة الفاطمية وغيرتهم على كل شبر من الأراضي التابعة لهم، ولكن باءت هذه المحاولات الثلاث بالفشل، ولم تحقق الهدف المنشود لها وهو استعادة بيت المقدس وفي أثناء محاولة الصليبيين صد هذه الحملات الثلاث قيادة بلدوين الأول ملك بيت المقدس، قام بعض رجال الدين المسيحي بأدوار بارزة لحث الصليبيين على الشجاعة والوقوف بصلابة في مواجهة الجيوش الفاطمية، مستخدمين في ذلك كل الوسائل كالمشاركة في حمل السلاح للقتال، والوعظ والخطب في جموع الصليبيين، وحمل الصلبان أمام الجيوش لتحميس الصليبيين على القتال بشجاعة، فمن تلك المواقف التي سجلت لرجال الدين المسيحي موقف رئيس الشمامسة ـ أرنول مالكورن ـ الذي خطب خطبة حماسية لإثارة مشاعر المقاتلين لصد حملة المصريين على الرملة سنة 495هـ/1101م، وكذلك ما قام به المندوب البابوي موريس من تلاوة نصوص لإدخال الطمأنينة في نفوس المقاتلين بعد أن انتابهم الرعب عندما رأوا ضخامة القوات الفاطمية، ثم قام الملك بلدوين بعد ذلك بحمل الصليب المقدس أمام المقاتلين الصليبيين ليدخل الطمأنينة في نفوسهم، وخطب في المقاتلين خطبة دينية بأنفسهم وتمسكهم بالأمل في النصر [3].

وكان لهذه الخطبة بالفعل أثرها الكبير على الصليبيين، فعادت إليهم الثقة والشجاعة وهتفوا بصوت عال قائلين: ساعدنا يارب ساعدنا يارب. ثم قبلوا الصليب المقدس وقاموا بالصلاة لله حتى ينصرهم في تلك المعركة، وفي الوقت نفسه وصلت معونات من غرب أوروبا لتعزيز هذه القوات

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 248.
(2) المصدر نفسه نقلاص عن الكامل في التاريخ ص 248.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 249.

فساعدت على زيادة قوة وشجاعة الصليبيين، وتحقق بذلك النصر على المسلمين في حملة الرملة الأولى عام 495هـ/1101م وكذلك برز دور روبرت روان - مطران مدينة الرملة أثناء الحملة الفاطمية الثانية على الرملة سنة 495هـ/1102م حيث تذكر بعض المصادر اللاتينية المعاصرة لتلك الأحداث، أن هذا المطران عقد اجتماعاً مع كبار أهالي المدينة للتشاور معاً - عقب استيلاء المسلمين عليها - وتقرر في هذا الاجتماع ضرورة إرسال مندوب عنهم إلى الملك بلدوين الأول بيافا لطلب النجدة منه [1]، وهكذا نجد رجل الدين الغربي يقوم أحياناً محل حاكم المدينة في التصدي لقوات العدو عند أي هجوم مفاجئ على المدن الصليبية وهذا ما نلمسه بالنسبة لوضع الفقهاء والعلماء داخل مدنهم وقد انتهى الصراع عند مدينة الرملة بانتصار الفاطميين انتصاراً كبيراً نتج عنه إبادة كل أفراد الجيش الصليبي باستثناء بلدوين الذي تمكن من الفرار إلى يافا [2].

وأما بالنسبة للحملة الثالثة التي أرسلها الوزير الفاطمي الأفضل إلى الرملة سنة 498هـ/1105م، فقد لعب أثناءها أفريمار بطريرك بيت المقدس دوراً هاماً وخطيراً، فعندما تقابل الجيشان الفاطمي والصليبي في مفترق الطرق عند الرملة خشى الملك بلدويني من التفوق العددي للقوات الفاطمية فأرسل مندوباً عنه برسالة إلى أفريمار - يطلب منه أن يتفرغ إلى الله هو والعامة من الشعب وأن يكثروا من الصلاة والصوم والزكاة؛ ليكون هذا بمثابة فدية أو قربانا إلى الله لمساعدة الفرنج حتى النصر، وليحمي الله الفرنج من أية هزيمة قد تلحق بهم. كما طلب منه الملك بلدوين أيضاً أن يعظ الناس ويحثهم على ضرورة التطوع لحمل السلاح والإسراع إلى ميدان القتال للانضمام لإخوانهم لمساندتهم في حروبهم ضد المسلمين [3]، وفي الحال أمر افريمار بدق أجراس الكنائس، فاجتمع الناس جميعاً عنده، فخطب فيهم قائلاً: يا أصدقائي... يا خدم المسيح لقد حضر هذا المبعوث من قبل الملك بلدوين ليخبرنا أن المعركة ستبدأ مع المسلمين عند الرملة. ومن أجل تحقيق النصر يتحتم علينا التضرع إلى الله، وكثرة الصلاة، وأخبرنا هذا المندوب الملكي بأن الملك قد أخر بدء المعركة إلى الغد حتى يوافق هذا اليوم عيد القيامة المجيد؛ ولذلك فإنني أطلب منكم جميعاً إقامة الصلوات والتعبد طوال هذه الليلة، وعند بزوغ فجر الغد توجهوا حفاة إلى الأماكن المقدسة بالمدينة، تاركين وراءكم كل شهواتكم، مذللين أنفسكم، متضرعين إلى الله بكل التقوى والإيمان لينقذنا من أيدي الأعداء، ولينصرنا عليهم.

أما عن نفسي فإنني ذاهب في الحال للوقوف بجوار الملك.. واعلموا جيداً بأنني سوف أحث جميع القادرين منكم على حمل السلاح على أن يأتوا معي لسد حاجة الملك من المقاتلين [4]، وكان لهذا النداء صدى كبيراً لدى كثير من المسيحيين الموجودين في القدس فسرعان ما تقدم أكثر من مائة وخمسين مقاتل أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى المعسكر الصليبي بالرملة لمناصرة زملائهم، وفي

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 250.
(2) المصدر نفسه ص 250.
(3) المصدر نفسه ص 251.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 251.

صباح اليوم التالي ذهب برفقة هؤلاء المتطوعين كثير من القساوسة وعلى رأسهم أفريمار بطريرك بيت المقدس حاملاً الصليب المقدس، وقد وصلت هذه الجموع برئاسته إلى الملك بلدوين، وكان أفريمار قد أحضر الصليب المقدس معه حتى تتم البركة به، وعند وصولهم استقبلهم الملك بفرح وسرور عظيمين وارتفعت الروح المعنوية لدى المقاتلين الصليبيين، وقاموا جميعاً بأداء صلاة الشكر والدعاء لله قبل أن تبدأ المعركة [1]، عند طلوع فجر يوم المعركة - هو يوم الأحد 14 ذي الحجة 498هـ 27 أغسطس 1105م، قام وركب حصانه وأخذ يغدو ويروح أمام صفوف الصليبيين ويباركهم، ليرفع من روحهم المعنوية ويشجعهم على القتال بنفوس مطمئنة بأن النصر سيكون حليفهم [2]، فكان لهذه الجهود جميعها تأثيراً كبيراً وشديداً في زيادة حماس المقاتلين الصليبيين تحت قيادة الملك بلدوين، فلم يبالوا بقلة عددهم أمام أعداد المسلمين الهائلة، وكان النصر للجيش الصليبي في نهاية هذه المعركة وبهذا النصر الصليبي انتهت المحاولات الكبرى التي قامت بها الخلافة الفاطمية لاستعادة فلسطين من قبضة الصليبيين[3]، وجدير بالذكر أنه على الرغم من كثرة ما كتبه المؤرخون اللاتنيون القدامى عن بطولات رجال الدين المسيحي أثناء حملات الرملة الثلاث، فإننا لم نجد في كتابات المؤرخين المسلمين الذين تناولوا الكتابة عن تلك الفترة أية إشارات توضح لنا دور علماء الدين الإسلامي وفقهائه في تلك الأحداث، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا يسجلون تاريخهم على منهج الحوليات، فيركزون على أهم الأحداث دون كتابة التفاصيل الدقيقة المصاحبة لهذه الأحداث؛ ولهذا لم نعثر من قريب أو بعيد على معلومات توضح لنا موقف علماء وفقهاء المسلمين من هذه الحملات [4].

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 252.
(2) المصدر نفسه ص 252.
(3) الكامل في التاريخ (479/8) دور الفقهاء ص 253.
(4) دور الفقهاء والعلماء ص 253.

الغـــزو الصلـيبي

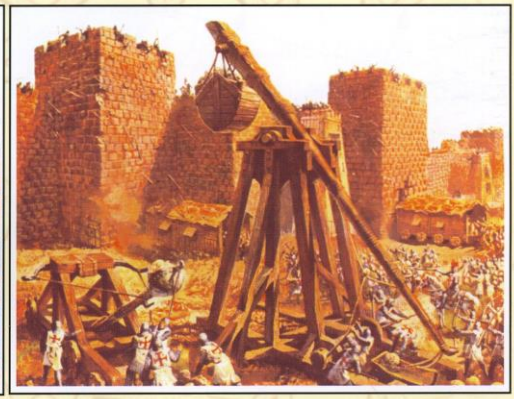

صورة من حصار الصليبيين لأحد حصون بلاد الشام

رسم يمثل إحدى الهجمات الصليبية

قلعة الحصن أو حصن الأكراد – قرب حمص – إحدى أهم قلاع بلاد الشام التي كانت مسرحاً لأحداث الحروب الصليبية

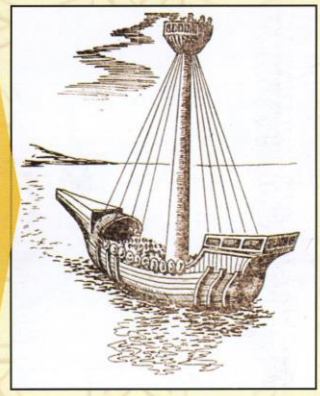

(الحراقة) كانت من أهم أدوات الحـرب التي استخدمها المسلمون في مـواجهـة الحـــروب الصـلـيـبية

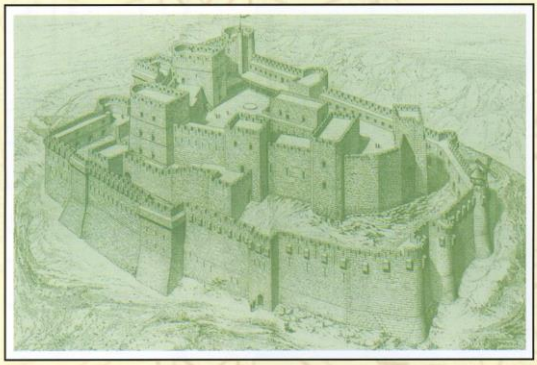

رسم قديم لقلعة الحصن

رابعاً: سقوط المدن الساحلية لبلاد الشام:

1 - سـقوط طـرابلس: ففـي عـام 492هـ/1099م عنـدما اقتربـت جحافـل العـدو الصـليبي مـن أسوار طـرابلس أسـرع حاكمهـا فخـر الملـك بـن عمـار إلـى مهـادنتهم بتقـديم الأمـوال والهـدايا وبعـض الجياد لهم، لإحساسه بعدم استعداده لمواجهتهم بعد حتـى لا يُعَرِّض نفسـه والمسلمين وإمارتـه للإبـادة على أيديهم ونحن لا نستبعد أن الدافع وراء انتهـاج القاضـي فخـر الملـك بـن عمـار وغيـره مـن حكـام المدن الإسلامية لسياسة المهادنة مع الصليبيين في ذلك الوقت، هو تمزق شمل المسلمين وعدم وجود قوة إسلامية كبرى تستطيع الوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي، خاصة بعد أن انكشف أمر الاتفـاق الذي تم بين الفاطميين والصـليبيين ومـا ترتـب عليـه مـن هزيمـة السـلاجقة فـي أنطاكيـة وهـو أن يقـف الفرنج عند أنطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقدس ويساعدوا الصليبيين ضـد السـلاجقة، علـى أية حالة لم تفلح سياسة المهادنة التي اتبعهـا ابـن عمـار مـع الفرنجـة إذ قـام ريمونـد الضـجلي بـالهجوم على طرابلس وفرض عليها حصـاراً شـديداً سـنة 495هـ/1101م حيـث كـان يطمـع فـي تأسـيس إمـارة مستقلة بها أسوة برفاقه من القادة الصليبيين في كل من الرهـا، وأنطاكيـة، وبيـت المقـدس، ولمـا شـعر فخر الملك بحرج موقفه اضطر إلى طلب النجدة من حمص ودمشق غير أنه لم يظفر بطائـل وانهـزم أمام الصليبيين، فاضطر القاضي ابن عمار إلى مهادنة الصليبيين مرة أخرى على مال وخيل فوافقوا ورحلوا عن طرابلس إلى انطرسوس واستولوا عليهـا فـي جمـادى الآخـر مـن السـنة نفسـها [1]، ولكـن ريمونـد أعـاد الكـرة مـرة أخـرى وهـاجم مدينـة طـرابلس منتهـزاً فرصـة وصـول أسـطول جنـوي إلـى اللاذقية في سنة 497هـ/شتاء 1103م ولكنه فشل هذه المرة أيضاً بفضل شجاعة القاضـي فخـر الملـك بـن عمـار وصـبره وعـدم يأسـه وتشـجيعه لأهـل طـرابلس علـى مواصـلة المقاومـة لـدفع الأعـداء عـن بلدهم، فاضطر ريموند إلى أن يتجه بالأسطول الجنوني في العام نفسه لمهاجمة ثغر جبيل التابع لابـن عمار فاستولوا عليه وغدروا بأهله [2].

وهكـذا أصـبح القاضـي فخـر الملـك بـن عمـار معزولاً تمامـاً عـن المـدن المجـاورة بعـد أن جـرد الصـليبيون طـرابلس مـن جميـع المـدن التابعـة لهـا، ولـم يبـق أمامـه سـوى الاسـتيلاء علـى مدينـة طـرابلس نفسها بوصفها العاصمة الطبيعية للإمارة التـي يحلـم بتكوينهـا، ولـذلك بنـى ريمونـد قلعـة علـى الجبـال المواجهة طرابلس عرفت باسم قلعة صنجيل، ليتخذها قاعدة يسيطر بها على طـرابلس، فقـام القاضـي ابن عمار بجهود كبيرة مع أهالي طرابلس لهدم هذه القلعـة وإحراقهـا ممـا ترتـب عليـه مـوت ريمونـد الفجلي متأثراً بحروقه التي أصيب بها أثناء حريق هذه القلعة فـي جمـادي الأولـى سـنة 498هـ/فبرايـر 1015م ولكن الفرنج كانوا قد صمموا بعد ذلك علـى اسـتئناف الحصـار البـري حـول مدينـة طـرابلس عن طريـق قلعـة ضـجيل فاضـطر القاضـي ابـن عمـار إلـى طلـب نجـدة عاجلـة مـن سـقمان بـن أرتـق التركمـاني، صـاحب حصـن كيفـا[3]، فلـم يـدخر وسـعاً فـي التحـرك تجـاه طـرابلس، ولكنـه تـوفى فـي

(1) المصدر نفسه ص 86.

(2) تاريخ العظيمي ص 377.

(3) هي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سقمان

الطريق، فانقطع بذلك آخر أمل لبنى عمار في الحصول على مساعدة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس [1]، فاضطر القاضي ابن عمار إلى أن يعتمد على أهالي المدينة فأخذ يعد العدة استعداداً لمواجهة الصليبيين بقدر الإمكانيات المتاحة في المدينة، فقام بجمع الأموال من بعض التجار الأغنياء من سكان طرابلس ووزعها على المجاهدين ليسد العجز الناتج عن كثرة ما سبق أن قدمه الصليبيون من أموال وذهب عندما عقد الهدنة معهم وعلى الرغم من أن هذا المسلك الذي اتبعه القاضي ابن عمار مع التجار يعتبر تصرفاً ضرورياً شرعياً لاستكمال العدة وتجهيز الجيش بما يلزمه من معدات لمواجهة العدو [2]، وأنه لم يقم بذلك من فراغ وإنما من واقع مسؤوليته التي تحتم عليه كحاكم للبلاد أن يستعين بأموال الرعية أو الاقتراض من التجار والأغنياء لسد هذا العجز في الأموال الموجودة بالبلد لمصلحة الإسلام والمسلمين وعلى الرغم من كل ذلك فإن هؤلاء التجار المسلمين قد خرجوا إلى الصليبيين وقالوا لهم: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم [3]، ولم يكتفوا بذلك التصرف المشين، وإنما كشفوا للصليبيين عن الأماكن التي ترد منها الميرة والمؤن لابن عمار. هذا بدلاً من أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله عملاً بقوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**} [الصف: 10 - 11]. وعلى الفور قام الصليبيون بتشديد الحصار على هذه الأماكن التي كشفها أولئك التجار الصليبيون حتى يمنعوا دخول أي شيء إلى البلد، فيضطر ابن عمار وأهل طرابلس للاستسلام لهم ولكن على الرغم من ذلك فقد استمرت المدينة في مقاومتها للحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل الله ثم بعزيمة ابن عمار، وقوة إيمان أهل طرابلس ورفضهم الاستسلام من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحري يحكم الحصار على طرابلس من جهة البحر من ناحية أخرى، ولكن لما استبد اليأس من فك هذا الحصار وضاقت الأقوات وقلت بطرابلس، اضطر القاضي فخر الملك ابن عمار إلى ترك طرابلس والخروج إلى بغداد في رمضان سنة 501هـ/مارس 1108م، لطلب النجدة من زعيما العالم الإسلامي في المشرق آنذاك وهما الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه السلجوقي 499هـ - 509هـ/1105 - 1115م وقبل أن يترك فخر الملك طرابلس استناب بها ابن عمه أبا المناقب فعصى فيها، فقبض عليه أصحاب فخر الملك وتولوا الأمور بطرابلس [4].

ومكث القاضي فخر الملك ببغداد أربعة أشهر أكرمه فيها كل من الخليفة والسلطان أحسن إكرام. ويصف ابن الأثير الحفاوة التي قوبل بها قائلاً: وسير الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة، وكذلك فعل السلطان وفعل معه مالم

بن أرتق.

(1) ذيل دمشق ص 146 - 147 وفيات الأعيان (191/1).

(2) دور الفقهاء والعلماء والمسلمين في الشرق الأدنى ص 88.

(3) الكامل في التاريخ (491/8).

(4) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 160.

يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله. وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر [1]. ومع ذلك فإن فخر الملك لم يظفر بطائل من الخليفة والسلطان. وعاد إلى دمشق في محرم 502هـ/1109م وهنالك علم بأن طرابلس أصبحت تابعة للفاطميين إذ أن أهلها قد ضاق بهم الحصار الصليبي المضروب عليهم، فراسلوا الوزير الأفضل الفاطمي يطلبون منه أن يبعث إليهم والياً من قبله يتولى إدارة المدينة ويرسل لهم الغلة والميرة فاستجاب لهم الأفضل وأرسل إليهم من قبله شرف الدولة بن أبي الطيب والياً على طرابلس[2]، وهكذا عاد القاضي فخر الملك بن عمار من بغداد ليجد نفسه بلا وطن وبلا أهل، إذ أن الوالي الفاطمي قبض على أهل بيته، وأصحابه، وذخائره، وآلاته، وأثاثه، وحمل الجميع إلى مصر في البحر[3].

ولذلك أقام فخر الملك بن عمار في دمشق عند أتابك طغتكين، الذي أقطعة الزبداني وأعمالها[4]، ثم ما لبثت طرابلس أن سقطت بأيدي الصليبيين في ذي الحجة 502هـ/1108م واستمر الحال بفخر الملك على هذا الوضع حتى خرج في سنة 516هـ/1122م إلى مصر حيث يقيم أهله. وهناك قرر له الخليفة الفاطمي الآمر 496 - 524هـ/1102 - 1129م داراً أعدت له وقرر له راتباً في كل شهر[5]، ويمكن إجمال أسباب سقوط طرابلس في النقاط الآتية:

* ضعف الجبهة الإسلامية.
* استهتار الفاطميين بالموقف في طرابلس.
* مساعدة الجنوية والمردة للصليبيين.
* استيلاء الصليبيين على المدن المحيطة بطرابلس [6].

وقد حدَّد أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ثلاثة أسباب لسقوط طرابلس وهي:

أولاً: تقاعس الفاطميين عن المسير إليها تلك المدة الطويلة.

ثانياً: ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد حسب الحال.

ثالثاً: عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية، هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة [7]. وقد استسلمت طرابلس للغزاة بشروط عدم الاعتداء على الأهالي والممتلكات، لكنهم كالعادة، لم يفوا بشروط الأمان، فنهبوا الأموال، وأسروا الرجال وسبوا النساء

(1) الكامل في التاريخ (517/8، 518).
(2) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 161.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 90.
(4) المصدر نفسه نقلاً عن ذيل تاريخ دمشق ص 165.
(5) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص 122 إلى 130.
(6) النجوم الزاهرة (179/5 - 180).
(7) الكامل في التاريخ (534/8).

والأطفال وغنموا من الأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحصى [1]، وأكمل الصليبيون احتلال بقية مدن إمارة طرابلس فاستولوا على: بانياس وجبلة، وحصن الأكراد، وبدأت إمارة طرابلس في النمو، وصار تاريخها مرتبطاً بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة، وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى [2].

2 - سقوط بيروت: تهيأ للملك بلدوين الحرية ليواصل توسيع حدود مملكته وتطَّلع إلى المدن الساحلية مثل عسقلان في الجنوب، وصور وصيدا وبيروت في الشمال. والمعروف أن كلاً من عسقلان وصور تُعدُّ من الحصون المنيعة وتنزل فيها حاميات عسكرية قوية وبالتالي يقتضي إخضاعها استعدادات عسكرية قوية وبعد ان سقطت كل من جبيل وعرقة وطرابلس بيد الصليبيين، وفرت هذه الأخيرة قاعدة مناسبة لهم، فوجَّهوا اهتمامهم للاستيلاء على بيروت، فحاصرها بلدوين براً وبحراً، ولما لم يتمكَّن من اقتحامها طلب مساعدة من صليبي طرابلس وغيرهم من الشمال، ومن نصارى لبنان، فاستجاب لطلبه برتراند، صاحب طرابلس، وجوسلين صاحب تل باشر، كما اجتمع بأمراء النصارى في جبيل، وشنَّ الخلفاء غارة مفاجئة على بلاد وقرى الغرب المحيطة ببيروت، فنهبوها وأحرقوها، وقتلوا وأسروا كل من وجدوه من أهلها [3]، ثم حاصروا بيروت، ووضعوا أبراجاً لينصبوها على أسوارها، لكنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من جانب سكانها بقيادة حاكمها عضد الدولة التنوخي، وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائراً وصل أسطول فاطمي يتألف من تسع عشرة سفينة فاصطدم بالأسطول الصليبي المحاصر للمدينة، وتغلَّب عليه، وأسر بعض قطعه وتمكَّن الأسطول الفاطمي من دخول الميناء، وهو يحمل الغلال والميرة، مما أعطى السكان الأمل والصمود والدفاع عن مدينتهم، تجاه هذا الوضع العسكري، استنجد بلدوين بالجنوية، فأمدُّوه بأربعين سفينة مشحونة بالمقاتلين، فتقوَّى بهم، وضَّيق الحصار على بيروت، وهاجمها بكل قواته البرية والبحرية يوم الجمعة (21 شوال 503هـ/13نيسان 1110م) فاشتد القتال بين الطرفين، وقُتل قائد الأسطول الفاطمي وخلق كثير من المسلمين ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا، لدرجة أن القتال استمر بشكل متواصل ليل نهار، حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف. وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في كسر الطوق البحري، وحاول عضد الدولة التنوخي الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونهُبت بيروت، وسبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا [4]، وخرجت من مصر نجدة فاطمية لمساعدة بيروت قوامها ثلاثمائة فارس، لكن وقعت في كمين نصبه الصليبيون عند نهر الأردن [5].

3 - سقوط صيدا: اهتم الفاطميون والسلاجقة الذين تناوبوا على حكم صيدا بتحصينها، فقد قام

(1) المصدر نفسه.
(2) الحركة الصليبية (297/1).
(3) أخبار الأعيان في جبل لبنان (506/2، 507) الشدياق.
(4) تاريخ الفاطميين د. محمد طقّوش ص 455.
(5) ذيل تاريخ دمشق ص 269.

الوالي الفاطمي سعد الدولـة الأفضـلي بعمـارة بـرج فيهـا فـي (491هـ/1098م) وحصّـنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام 494هـ/1101م مما جعلها تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت[1]، وجرت عدة محاولات صليبية للاستيلاء عليها، وفي أوائل عام 504هـ/ صيف 1110م وصل إلى عطا سبعون مركباً يحمل عشرة آلاف مقاتل نرويجي بقيادة سيجورد، أحد ملوك النرويج. وما إن علم بلدوين بوصولهم حتى سارع لاستقبالهم، وأظهر اغتباطه بقدومهم وأحاطهم بكل مظاهر الحفاوة والتشريف، وأقنع الملك النرويجي بمشاركته في الاستيلاء على صيدا، كما استدعى برتراند، حاكم طرابلس، فجاء بقواته وانضم إليهما، وبدأ الحلفاء في فرض حصار بري وبحري على صيدا في 13ربيع الآخر/19 تشرين الأول وقطعوا طرق الإمدادات إليها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور بمهاجمة السفن النرويجية، كاد أن يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو فاليري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر، وعجزت السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن[2].

ولما ضاق الحال بأهل صيدا من شدة الحصار الصليبي المفروض حول المدينة براً وبحراً، وفشلت جميع محاولاتهم لإنقاذ المدينة من الوقوع في براثن الصليبيين ويئسوا من وصول أي نجدة إليهم، لم يجدوا بدًّا من التسليم بالتفاوض مع الملك بلدوين، فخرج قاضي صيدا ومعه جماعة من شيوخها إلى الملك بلدوين للتفاوض معه من أجل الأمان، فأمنهم بلدوين على أنفسهم وأموالهم وعساكرهم، وترك لهم حرية الاختيار أما البقاء بصيدا آمنين وأما المسير إلى أي مكان يرغبونه دون أن يمنعهم أحد، وحلف لهم على ذلك [3]، ثم سلمت المدينة للصليبيين في 20 جمادي الأولى 504هـ/4 ديسمبر 1110م وخرج الأهالي في جماعات غفيرة إلى دمشق وبقي فيها من أراد البقاء [4]. وقد قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة عن الحملة الصليبية النرويجية التي قادها الملك سيجورد ودوره في دعم الحركة الصليبية وانتهى إلى النتائج الآتية:

- توافرت عدة دوافع مجتمعة دفعت بالنرويج في عهد سيجورد وأخويه أيستين وأولاف للمشاركة في المشروع الصليبي من خلال الحملة الصليبية النرويجية التي قادها الملك النرويجي سيجورد، وكانت المملكة الصليبية في أشد الحاجة إلى الدعم البشري، والبحري لمواصلة إسقاط المدن الإستراتيجية الهامة على الساحل.

- أفادت المصادر التاريخية النرويجية في تسليط الضوء على رحلة الملك النرويجي وكذلك تعاونه مع الصليبيين كما قدمت المصادر التاريخية الصليبية الأخرى تفاصيل هامة عن الدعم العسكري النرويجي للمملكة الصليبية.

(1) أخبار الأعيان في جبل لبنان (2/506 - 507).
(2) ذيل تاريخ دمشق ص 273، تاريخ الفاطميين ص 457.
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 171.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدني ص 91.

- أثبتت فعاليات تلك الحملة الصليبية النرويجية أن الحركة الصليبية ظاهرة أوروبية عامة اشتركت فيها كافة الشعوب الأوروبية بصورة أو بأخرى، ولم يحل الموقع الجغرافي النائي دون مشاركة النرويجيين في إحداثها وعلى ذلك لم يكن الأمر قاصراً على فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإيطاليا، بل أن النرويج كانت لها بصمتها هي الأخرى، مع ملاحظة أن الدور النرويجي لم يكن بنفس الحجم الكبير الذي كان للدور الفرنسي والإنجليزي وكذلك فعاليات المدن التجارية الإيطالية.

- أثبتت فعاليات الحملة الصليبية النرويجية أن الوجود الصليبي في بلاد الشام لم يكن يستطيع الاعتماد على إمكاناته الذاتية في مواجهة المحيط الإسلامي العام هناك، خاصة خلال المرحلة المبكرة من تاريخ الصليبيين في المنطقة. وجاءت أحداث تلك الحملة لتكون حلقة في سلسلة طويلة من النجدات، والحملات الأوروبية القادمة من الغرب الأوروبي، ومن الضروري بمكان ملاحظة أن تلك الحملة النرويجية هي جزء لا يتجزأ من المشروع الصليبي العام الذي لم يتوقف طول تلك المرحلة وهذا يؤدي بنا إلى تصور دارسة تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام على اعتبار عدد الحملات الرئيسية المعروفة والتي استهدفت الشام ومصر وتونس من الممكن أن يجعلنا نغفل أهمية حملات صليبية أخرى فرعية مثل الحملة الصليبية النرويجية وغيرها من الحملات الأخرى التي لم تحظ بنفس الاهتمام الذي وجه للحملات الرئيسية، وبالتالي فمن الإنصاف القول بأن رؤية المشروع الصليبي كمشروع واحد عام من الممكن أن تجنبنا الرؤية المجزأة والتي قد لا تقدر أهمية الحملات الفرعية التي ساهمت بدورها هي الأخرى في تكوين جسد المشروع الصليبي ككل، وقد كان دعم الملك النرويجي سيجورد للحركة الفرنجية الصليبية خلال المرحلة من 1107 - 1110م /501 - 504هـ[1].

تقول الكاتبة كارين أرمسترونغ:... إن الحملات الصليبية لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية بالنسبة للهوية الغربية التي كانت قيد التبلور في ذلك الحين وهي ما فتئت مستمرة إلى يومنا هذا، ناهيك عن أنها أظهرت الدين في أشنع صوره [2].. خلال عام 1983م أمضيت بعض الوقت في إسرائيل لإجراء أبحاث وإعداد سلسلة تلفزيونية عن المسيحية المبكرة للقناة البريطانية الرابعة، وأثناء وجودي هناك، وجدت نفسي المرة تلو المرة وجهاً لوجه مع الحملات الصليبية. وأنت في إنكلترا قد تمر بضعة شهور من غير أن تتبادر إلى ذهنك الحملات الصليبية حتى ولو مرة واحدة، لكن ذلك مستحيل ببساطة وأنت موجود في إسرائيل، ففيها تطالعك باستمرار كنائس وقلاع ومدن بأكملها بناها الصليبيون. ولأول مرة، أصبحت الروح الصليبية حقيقة تاريخية ملموسة بالنسبة لي، فقلت لنفسي: هذه ليست أساطير غامضة، فإني ما يقرب من ألف عام، حين كانت أوروبا لا تزال ترتع في الهمجية وأبعد ما تكون عن التمدن، شّق آلاف المسيحيين طريقهم بجهد جهيد نحو الشرق الأوسط، وأنشأوا دولاً وممالك هناك، وكانت تلك أولى مستعمراتنا ومجرد حدوث ذلك ليبدو للمرء أمراً غير عادي البتة. ولعل ما سحرني بنوع خاص،

(1) الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، محمد مؤنس عوض ص 41.
(2) الحرب المقدسة ص 11.

قلاع الصليبيين وحصونهم الضخمة، واكتشافي أنها بنيت على امتداد حدود دويلاتهم، فثمة سلسلة من القلاع الصليبية في إسرائيل، ولبنان، وسوريا والأردن ولا عجب إذن أن يكون الإسرائيليون والفلسطينيون كلاهما على معرفة جيدة بالحملات الصليبية بأدق تفاصيلها فالإسرائيليون لا يخفون أن مشاريع الاستيطان الضخمة التي ينفذونها على التلال المحيطة بمدينة القدس إنما تشبه الحصون الصليبية شبها بيِّناً: فالناس الذين يقطنون تلك المجمعات السكنية يرون أنفسهم حُماة لأورشليم اليهودية من العرب. فلكي يهاجم القدس، سيجد الجيش العربي الغازي أنه مضطر إلى شق طريقه عبر تلك المستوطنات المدينة الكثيفة السكان في خط النار، كما اكتشفت أن الدراسات الصليبية مزدهرة في الجامعة العبرية بالقدس وهذا ما لم يُفاجئني أبداً. فأطلال وأوابد القلاع الصليبية قمينة بتذكير المرء بأن ثمة دولة غربية أخرى قد زرعت نفسها في عالم إسلامي معاد لها وأنها كانت قلقة، على ما يبدو بشأن أمنها القومي، تماماً كقلق دولة إسرائيل اليوم، ولم يكن قد خطر لي في السابق قط أن أقرن المشروع الصليبي الغربي والملتبس جداً في القرون الوسطى، بالنزاع القائم حالياً في الشرق الأوسط لكن سرعان ما بدا الأمر غاية في السهولة حين كنت في إسرائيل[1].

* * *

(1) الحرب المقدسة ص 15.